تحصيل نظائر القرآن

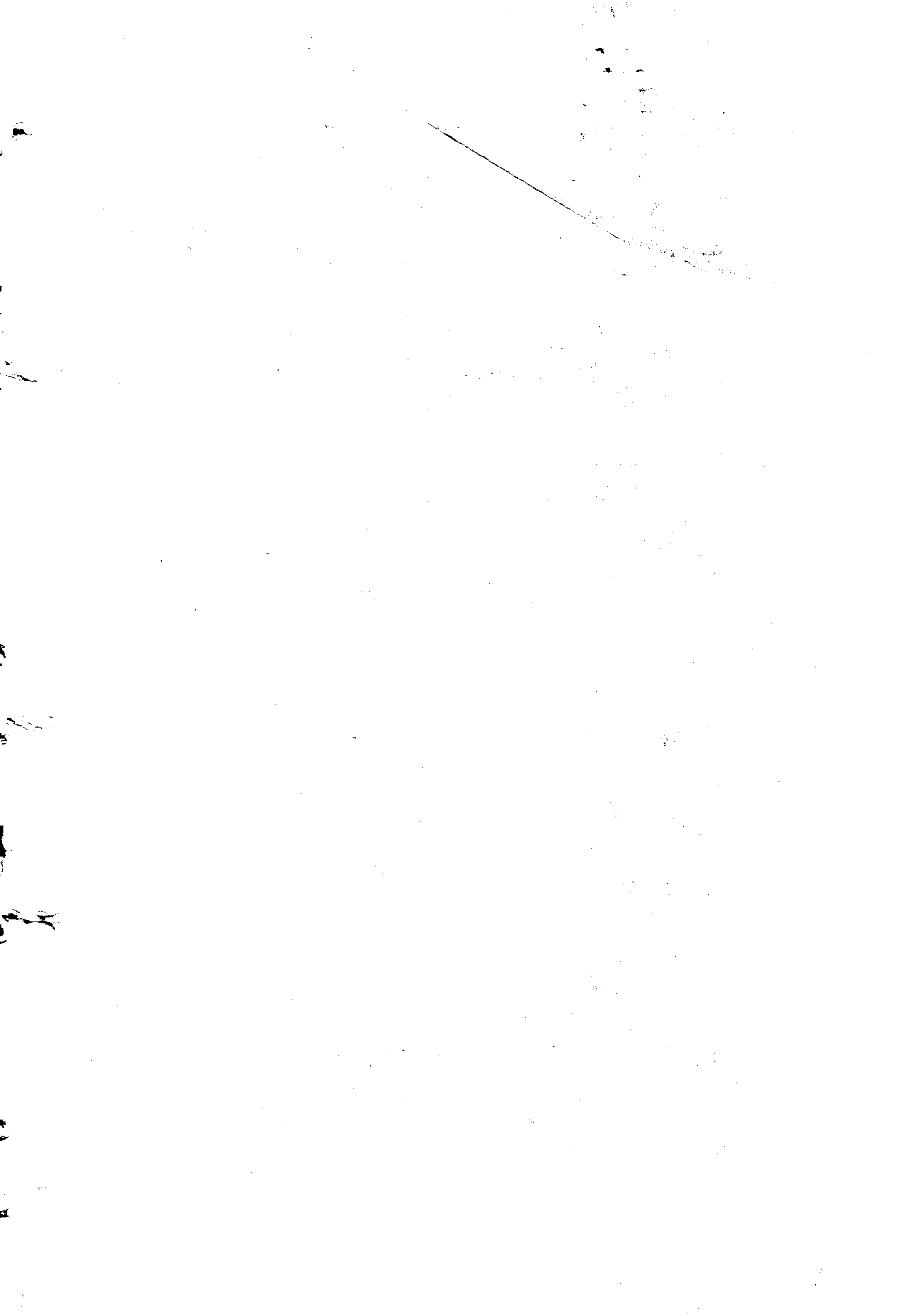
للحكيم الترمذي

تحقيق وضبط

حسني نصر زيدان

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله ، الذى بلغ ما أنزل إليه من ربه ، وبين للناس ما نزل إليهم ، فأدى الأمانة ، وبلغ الرسالة .

وبعـــد :

فإن القرآن الكريم هو أجل نعمة أنعم الله بها على عباده ، حيث جاء فيه بالعقيدة الحقة ، والشريعة السمحة ، وأرسخ فيه أمهات الفضائل وأورد به أحسن القصص وأبلغ العبر ، فكان نورا وهدى ، وشفاء ورحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾(1) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(2) .

---

(1) الآية ١٧٤ من سورة النساء .

(2) من الآية : ٥٧ من سورة يونس .

فالقرآن الكريم يوجه الفرد إلى العقيدة الفطرية الحقة ، إلى عقيدة التوحيد الخالص ، التى فطر الله الناس عليها ، حيث يقرها العقل ، ويطمئن لها الوجدان ، فنراه يحض على اتباع الدين القيم الذى لا زيغ فيه ولا اعوجاج :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

ومن تدبر القرآن الكريم وجد أنه يحتوى بين دفتيه على أسس التشريع العادل الحكيم ، الذى يحقق مصالح الناس ، ويقيم العدل بينهم ويحفظ عليهم حقوقهم ، ويرفع الحرج عنهم ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث . إنها الشريعة السمحة التى أمر الله بها رسوله ودعاه إلى التمسك بها :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

ثم إنه ليرسم لنا أقوم المناهج الأخلاقية ، وأقربها إلى فطرة الإنسان

---

(١) الآية : ٣٠ من سورة الروم .

(٢) الآية : ١٨ من سورة الجاثية .

وسلوكه ، بما جاء به من أمهات الفضائل ، التى تعمل على تهذيب النفوس وتطهيرها من الشرور والآثام ، وتكفل العيش والطمأنينة للأفراد والجماعات ، وليتأمل القارىء الكريم لونا من هذه الأخلاق ، ونموذجا من هذه الفضائل ، حيث يعظ لقمان ابنه فيقول :

﴿ يا بُنَىَّ : أَقِمِ الصَّلاَةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى ما أصابَكَ ، إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فى الْأَرْضِ مَرَحاً ، إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَاقْصِدْ فى مَشْيِكَ ، واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[1] .

فالقرآن بشرائعه وأحكامه ، وآدابه وأخلاقه : يرسم للمجتمع والفرد طريق الهداية ، وسبيل السعادة فى الدنيا والآخرة حيث يقول :

﴿ إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾[2] .

ثم إنه ليورد أحسن القصص وأصدقه ، بما ينتظم أبلغ العظات

---

(١) الآيات : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ من سورة لقمان

(٢) من الآية : ٩ من سورة الإسراء .

وأنفع العبر ، فهو يصور أحوال الماضين فى أسلوب قصصى بارع أخاذ ، لتكون عظة وعبرة للحاضرين فيجتنبوا رذائلهم ، ويتبعوا فضائلهم ، تأمل قوله تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾[1] .

وأيضاً حينما تعرض لقصة أصحاب الكهف حيث يقول عز وجل :
﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾[2] .

ثم بعد هذا كله : نرى القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة ، والحجة الساطعة ، على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعواه ، فقد تحدى به أساطين البلغاء ، وفحول الخطباء ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، أو حتى بأقصر سورة منه ، فكان الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى الباقية على مر الزمن ، وقد تكفل الله بحفظه من التحريف والتبديل فقال :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[3] .

ثم يسره للذكر ، فجاء رقيق العبارة ، عذب الأسلوب ، سهل الحفظ

---

(١) من الآية : ٣ من سورة يوسف .
(٢) من الآية : ١٣ من سورة الكهف .
(٣) الآية : ٩ من سورة الحجر .

ولا يعرف من بين الكتب السماوية كتاب يحفظ عن ظهر قلب سواه : قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[1] .

فإذا كان القرآن من أجل النعم علينا ، فما أجدرنا أن نوفى شكر هذه النعمة ، وذلك بأن نتخذه إماما نهتدى بهديه ، ومصباحا نسير فى ضوئه ، ودستورا نعمل بأحكامه ؛ ولن نصل إلى هذا كله إلا بتدبر آياته وتفهم معانيه ، ومعرفة أساليبه ، والوقوف على مراميه ، قال عز من قائل :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾[2] .

وإن آيات القرآن لتفسر بعضها بعضا ، بحيث أن من فهم بعض آياته سهل عليه فهم كثير من الآيات ، ومن عرف أسلوبه فى موضع : أعانه على معرفة أكثر أساليبه فى مواضع عديدة ، ففى كل آية نور يضىء آيات أخرى ، ويعين على تدبرها ، ويهدى الله لنوره من يشاء .

وإذا كان للقرآن الكريم هذه المنزلة الجليلة . والشأن العظيم ، فلا

---

(١) الآية : ١٦ من سورة القمر .

(٢) الآية ٢٩ من سورة ص .

غرو أن يكون موضع عناية المسلمين ، ومحل دراسة الباحثين ، فقد تتابعت أنواع التآليف فى أحكامه وتفسيره ، وفى إعجازه وبلاغته ، وفى لغته وإعرابه ، حتى لقد ازدهرت فى الثقافة الإسلامية ضروب من العلوم والفنون ، كلها تدور حول القرآن الكريم ، وتنضوى تحت لوائه .

وها نحن نقدم للقارىء الكريم إحدى الرسائل التى تناولت بالتحليل دراسة بعض الاصطلاحات الواردة فى القرآن الكريم ، بما يكشف لنا عن مضمون سرها ، ويلقى أضواء على نظيرها فى مواضع أخرى ، وذلك فى ضوء المعانى المستنبطة من القرآن تارة ومن الحديث تارة أخرى ، ثم فى ضوء التحليل اللغوى العربى ، الذى يؤدى إلى أصلها ومواطن استعمالها ، والحقيقة أن هذا اللون من الدراسة لم نعهده فى علوم القرآن ، فهناك تآليف فى أنواع كثيرة من علوم القرآن مثل معرفة الناسخ والمنسوخ ، وتاريخ القرآن ، ومعرفة المحكم والمتشابه ، وغريب القرآن ، ومعرفة المكى والمدنى ، وأسباب النزول . إلى غير ذلك ، ولكنى لم أجد من المؤلفين من صرف جهده إلى هذا اللون من الدراسة القرآنية التحليلية لبعض المصطلحات الواردة فى القرآن الكريم وهذا مما أدى بى إلى العمل على إعداد هذه الرسالة ، وتحقيقها حتى تكون بين يدى القارىء الكريم ، فيستطيع أن يشارك فى تذوق هذه الثقافة الرفيعة من الدراسة التحليلية العميقة .

وسوف نتناول بالتعريف صاحب الرسالة ، ثم التعريف بالرسالة ومحتوياتها .

أولا :

التعريف بالمؤلف :

هو أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر ، الملقب بالحكيم الترمذى ، نسبة إلى مدينة « ترمذ » المشهورة بأكابر العلماء ، ومشاهير المحدثين .

وقد ولد الحكيم الترمذى فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، ولم تذكر المصادر التاريخية التى ترجمت له شيئاً عن تحديد تاريخ ولادته بالضبط ، وقد ذكر الذهبى فى كتابه « تذكرة الحفاظ » أن الحكيم الترمذى عاش ثمانين سنة ، أما ابن حجر فيقول إنه عمر إلى التسعين ، وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته فمن قائل إنها كانت سنة ٢٥٥ ه‍ ، وهذا رأى باطل من أساسه ، حيث أن الحكيم الترمذى رحل إلى نيسابور وحدث بها عام ٢٨٥ ه‍ ، كما أن ابن حجر يذكر لنا أن ابن الأنبارى سمع من الترمذى سنة ٣١٨ ه‍ ، وأخيرا فإن الدراسة الحديثة لهذه الشخصية أثبتت أن وفاته كانت بعد عام ٣١٨ ه‍ ، حيث أنه يذكر لنا فى إحدى رسائله المعروفة « كتاب الحج وأسراره » ما يؤكد وجوده فى هذا الوقت ، فهو يتعجب من القرامطة الذين سلبوا الحجر الأسود واقتلعوه من مكانه ، ومعلوم أن هذه الحادثة الخطيرة وقعت عام ٣١٧ ه‍ ، وهذا

يؤيد رواية الذهبي وابن حجر ، ويبدو أنه عاش إلى ما يقرب من حدود العشرين وثلاثمائة هجرية . وأن حياته امتدت حتى بلغت المائة فما فوق .

ثقافته :

ولقد كان الحكيم الترمذى : واسع الثقافة ، غزير المادة ، جمع كثيراً ، وكتب كثيراً ، فقد ارتحل لطلب الحديث ، وجاب الآفاق فى خراسان والعراق ، وحدث بنيسابور ، وأخذ عن كبار العلماء وأئمة المحدثين ، ثم إنه لقى أكابر الصوفية ، وأخذ عنهم ما شاء له أن يأخذ ، واطلع على جميع ثقافات عصره ، فامتدت ثقافته إلى جميع فروع المعرفة وناقش الفقهاء ، وجادل المخالفين لأهل السنة ، وصنف الكتب والرسائل فى الرد عليهم ، ثم إنه ليحدثنا فى رسالة كتبها بخط يده « بدو شأن الحكيم الترمذى » فيقول : إنه اشتغل بتقدير شأن الزوال وحسابات البروج والاصطرلاب فأمعن فيه ، حتى جاءه النهى عن الاشتغال بهذه الأمور » ، وهكذا اشتغل الحكيم الترمذى بعلوم عصره من فلك وطب وتشريح ، وهذا ما نراه واضحا من خلال مؤلفاته العديدة .

وأما عن علوم اللغة فقد بلغ فيها غايتها ، فقد أحاط بعلوم القرآن والأدب والفقه ، وقد لعبت اللغة دورا هاما فى مؤلفاته ، فهناك مؤلفات كانت تقوم بدورها على المنهج اللغوى الذى اصطنعه ، ومن أهمها كتابيه : « الفروق ومنع الترادف ، وتحصيل نظائر القرآن » . فكلاهما

مكمل للآخر ، ويقوم على فكرة واحدة ، وهى نفى الترادف بين ألفاظ اللغة العربية ، فهو يحدد الصلة بين الألفاظ بعضها وبعض ، ليصل إلى مدلول كل لفظ على حدة ، وليحدد حقيقته ، ويتضح ذلك كل الوضوح فى كتاب « الفروق ومنع الترادف » ، وهو يرى أن اللفظ لابد أن يكون له معنى ثابت لايتغير بتغير المواضع والمقامات ، فاللفظ مهما تشعب معناه أو تعدد : إنما مرجعه وحقيقته واحدة ، ويبرز هذا المنهج فى كتاب « تحصيل نظائر القرآن » الذى نحن بصدد تحقيقه .

أسلوبه :

ويمتاز أسلوب الحكيم الترمذى بالبساطة فى الألفاظ ، مع جزالة المعنى ، وكثيراً مايطيل القول فى مسألة ما قاصدا توضيحها بشتى الوسائل فمن ضرب الأمثال إلى الاستشهاد بالآية والحديث ، إلى التحليل اللغوى العميق الدقيق ، كل هذا بعيداً عن التعقيد والغموض ، يساعده على ذلك اطلاعه الواسع وثقافته المترامية الأطراف ، بالإضافة إلى ثروة هائلة من اللغة اكسبت ذوقه مرونة ، وأسلوبه سلاسة ، ومنطقه جزالة .

منهجه فى التأليف :

وقد عنى الحكيم الترمذى بالنفس الإنسانية عناية خاصة ، فأخذ يعمل على تحليلها وغور أسرارها ، ووضع المنهج السليم لتهذيبها وترويضها ونجد هذا واضحا كل الوضوح من خلال قراءتنا لمؤلفاته الصوفية والأخلاقية ، مثل : « الرياضة وأدب النفس » ، « بيان الفرق بين

الصدر والقلب والفؤاد واللب » ، ثم يربط فى إطار جميل بين علاج الجسم من الأمراض والأسقام ، وبين علاج النفس من الأدناس والآثام ، بما ينم عن دراية بخفايا الأجسام وخبايا النفوس ، وأكثر مؤلفاته جاءت عن طريق المحاورات والأسئلة التى كانت تدور على ألسنة تلاميذه ، وكثيراً ما يبدأ رسائله بقوله : « أما بعد فإنك قد سألت عن . . . . » ، بل إن هناك رسائل بكاملها على هيئة أسئلة ، أو أجوبة لمسائل ، مثل « مسائل سئل عنها وذكر أجوبتها » ، جواب كتاب عثمان ابن سعيد » وكثيراً ما يقول : قال له قائل ما هو كذا أو كذا ؟ ؟ » .

وهذا ما يؤكد قوله عن نفسه : « ما صنفت حرفا عن تدبير ولا لينسب إلى شيء منه ، ولكن كان إذا غلب على وقتى أتسلى به » .

ولكن رغم هذا كله فقد كانت له نظريات جديدة ، وآراء لم يسبق إليها ، جعلته فى مصاف العلماء القلائل الذين يعتز بهم الإسلام ، وقد زخرت المكتبة العربية بمجموعة كبيرة من مؤلفاته ، أكثرها مازال مخطوطا مستودعا فى بطون المكتبات العالمية ، ما بين باريس واستانبول والاسكندرية والقاهرة ، ودمشق وكلكتا ، وبرلين وفينا ، وقد نشر منها حتى الآن :

١ — نوادر الأصول : طبع فى استانبول ١٢٩٣ هـ .
٢ — حقيقة الآدمية (الرياضة) : طبع الإسكندرية ١٩٤٦ م .
٣ — الرياضة وأدب النفس : طبع فى القاهرة ١٩٤٧ م .

٤ — بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب : القاهرة ١٩٥٨ م .

٦ — ختم الأولياء : طبع بيروت ١٩٦٥ م .

٧ — الحج وأسراره : القاهرة ١٩٦٩ م .

٨ — الفروق ومنع الترادف : تحت الطبع بالقاهرة .

٩ — تحصيل نظائر القرآن : وهى التى نقدم لها على هذه الصفحات

وأما باقى مؤلفاته فمازالت مخطوطة . وقد أشار أحد الباحثين إلى معظمها مبينا أماكن وجودها ، فى أحد كتب الترمذى . فليرجع إليه من شاء[١] .

ثانياً :

تعريف بالكتاب ومحتوياته :

ذكرنا فيما سبق أن الحكيم الترمذى قد عنى بدراسة القرآن الكريم ورحل فى طلب الحديث ، وأنه أجاد وأبرع فى الإحاطة باللغة العربية وفقهها . وكان ثمرة هذا كله أنه خرج بمنهج خاص فى تذوقه لمعانى القرآن الكريم ، بل إنه لينقض فكرة الترادف فى الألفاظ ويرفضها رفضاً قاطعاً ، معللا ذلك بأن اللفظ إذا كان مرادفا للفظ آخر : أدى إلى

---

(١) انظر مقدمة كتاب بيان الفرق بين الصدر والقلب تحقيق نقولا هير .

الاختلاف فى الفهم ، فقد يعلم الإنسان لهذا المعنى لفظا ، ويعلم الآخر لفظا آخر ، فيختلف الفهم . وهو بهذا يعارض من يقول بالترادف مدعياً : أن الترادف يوسع دائرة التعبير ويسهل مجال النظم والنثر ، بالإضافة إلى أنه يعمل على تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند تساوى الأخرى .

ولكن الحكيم الترمذى يرفض هذا ، وينهج نهجا استقرائيا يعرض فيه لطائفة من الألفاظ والعبارات التى يقال بترادفها ، وذلك ليثبت نقيض ذلك . وتقوم فكرة تأليفه لكتاب الفروق على هذه النظرية ، ثم نراه يوضح لنا أن الأسماء والألفاظ سمات المدلولات والحقائق ، ويجب أن يكون للألفاظ معنى ثابت لا يتغير ، ويجب أن يكون هناك عامل مشترك ثابت بين صور اللفظ المتعددة ، فاللفظ مهما تعدد معناه . فمرجعه إلى حقيقة واحدة ، تلك هى الفكرة الرئيسية التى قام عليها تأليفه لكتاب « تحصيل نظائر القرآن » ، ويبدو أن الحكيم الترمذى قد وقع فى يده بعض الكتب المؤلفة فى نظائر القرآن ، ويدعى فيها مؤلفها : أن اللفظ يرد على وجوه كثيرة متباينة ، فهو فى مكان بمعنى ، وفى آخر بمعنى ، وفى ثالث بمعنى وهكذا ، مثلا : كلمة الذكر ، تأتى مرة بمعنى الصلاة ، وبمعنى الخبر ، وبمعنى الوعظ ، وبمعنى الشرف ، وبمعنى القرآن ؛ فهو يدعى أن لفظ الذكر يأتى فى كل مرة بمعنى آخر .

فجاء الترمذى ورد على مؤلف هذا الكتاب ، وأوضح أن هذه المعانى جميعا وتلك الوجوه المتعددة فى الظاهر ، إنما مردها إلى أصل

واحد تنشعب عنه ، وترد إليه ، فكلمة الذكر هذه إنما مردها إلى أصل واحد ، ثم تشعبت هذه الوجوه عنه . وكذلك كلمة الهدى وغيرها مما هو مذكور فى الكتاب . وقد عمد الترمذى إلى إحدى وثمانين كلمة من القرآن الكريم ، ليطبق عليها نظريته ، ويردها فى استعمالاتها المختلفة إلى أصولها التى عنها تشعبت ، وقد سلك فى ذلك منهج التحليل اللغوى ، المعتمد على الاستشهاد بالقرآن الكريم فى كل ما يقعد من قواعد ، وبعد أن يوضح اشتقاق الكلمة وأصلها ، يعمد إلى استعمالاتها فى القرآن الكريم بمعانى متعددة ولكنها تدور حول أصل واحد ، وهو من خلال ذلك يدعم ما يقول بالحديث الشريف ، وأقوال السلف الصالح ، وأخبار الأمم الماضية ، بما يرسخ الفكرة لدى القارىء ، ويوضحها بشتى الوسائل .

وهذا الكتاب يعتبر مكملا لكتاب الفروق ومنع الترادف ، لأن فكرتهما واحدة كما أوضحنا ، وربما كان النواة التى على أساسها ألف كتاب الفروق فيما بعد. فكلاهما يتصل بمبحث دلالة الألفاظ والمعانى . وهذا الكتاب ينشر لأول مرة ، وهو يقع ضمن مجموعة مخطوطة للحكيم الترمذى ، تضم ثلاث كتب وهى :

١ — المسائل المكنونة .

٢ — تحصيل نظائر القرآن .

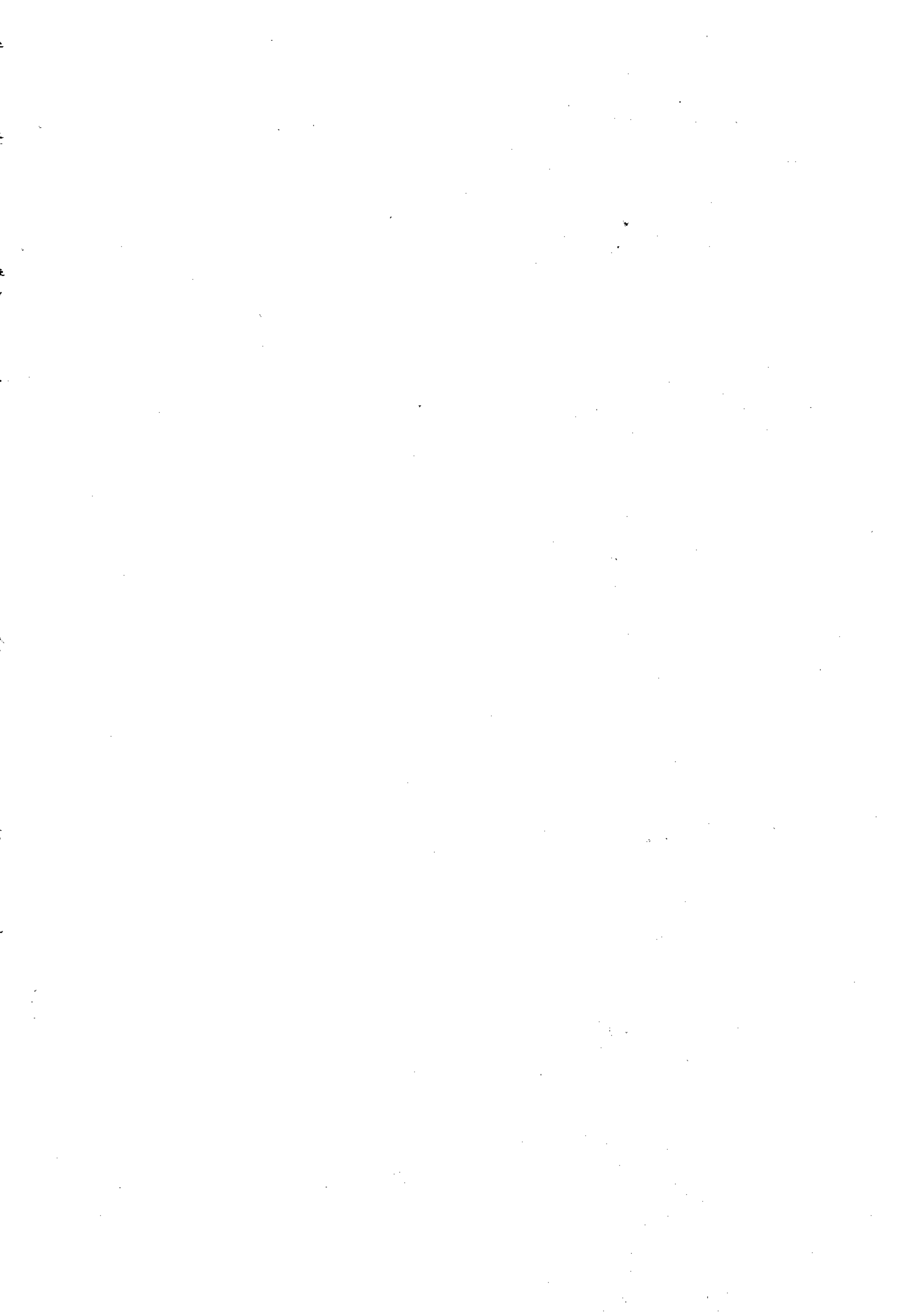
٣ — كتاب الرد على المعطلة .

وتوجد هذه المجموعة بمكتبة الاسكندرية (البلدية) تحت رقم ٣٥٨٥ ج ، وتوجد بدار الكتب المصرية نسخة مصورة لهذه المجموعة تحت رقم ٣٢٨٢ ج . وكذلك توجد نسخة مكتوبة حديثاً لكتاب « تحصيل نظائر القرآن » مستقلا نقلا عن نسخة الاسكندرية السابقة ، تحت رقم ١٩٥١٦ ب بدار الكتب المصرية . وتقع فى ثمانين صحيفة ، بكل صحيفة ٢١ سطرا مقاس ١٩ × ٢٦ سم وهذه النسخة مليئة بالأخطاء التى يرجع معظمها إلى عدم فهم الناسخ لما يكتب ، إلا أنها تتميز بتصحيح بعض آيات القرآن المكتوبة خطأ بالنسخة الأصلية ، وهى على العموم لا تصلح أن تكون وحدها أصلا يعتمد عليه فى التحقيق . وقد عولت فى إخراجى لهذا الكتاب على نسخة الاسكندرية الأصلية ، وهى تقع فى ٣٢ لوحة من الحجم الكبير ، وتشغل من لوحة ٤٨ حتى لوحة ٧٩ ، وهى بخط النسخ الواضح ، إلا أن بها تصحيفات كثيرة . وأخطاء فى بعض الآيات القرآنية ، ثم هى بعد ذلك تكاد تخلو من إسقاط الكلمات ووجود الفراغ ، وذلك على عكس كتابى « المسائل المكنونة » و « الرد على المعطلة » ، وقد كتبها ابن العديم سنة ٥٠٣ ﻫ وقد قمت بإخراج الكتاب بما يتناسب مع مكانته ، وراعيت أصول الترقيم وبوبته ، بما يجعله سهل التناول ، قريب الإدراك ، وقد أوضحت ما غمض من الألفاظ وترجمت لبعض الأعلام ، وضبطت الآيات والأحاديث . ووضعتها بين أقواس مميزة ، وأخيرا قمت بعمل ملحق للفهارس بآخره وأسأل

الله أن يشرح صدورنا بالإسلام ، ويملأ قلوبنا بالإيمان ، ويكشف عن قلوبنا الحجب لنتلق عنه أسرار كتابه ، ويرزقنا العمل بما فيه ، والطاعة له ولرسوله ، وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين ؟

حسنى نصر زيدان
كلية أصول الدين — جامعة الأزهر

غرة رمضان المعظم ١٣٨٩هـ .
١١ نوفمبر ١٩٦٩ م .



بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عبد الله رحمة الله عليه :

الحمد لله رب العالمين ، ولى الحمد وأهله ، أما بعد :

فإنا نظرنا فى هذا الكتاب المؤلف فى نظائر القرآن[1] ، فوجدنا الكلمة الواحدة مفسرة على وجوه ، فتدبرنا ذلك ، فإذا التفسير الذى فسره : إنما اختلفت الألفاظ فى تفسيره ، ومرجع ذلك إلى كلمة واحدة وإنما انشعبت حتى اختلفت ألفاظها الظاهرة الأحوال ، التى إنما نطق الكتاب بتلك الألفاظ من أجل الحادث فى ذلك الوقت وذلك مثل قوله :

١ — الهدى

فقد جاءت على ثمانية عشر وجها ، فالحاصل من هذه الكلمة : كلمة واحدة فقط ، وذلك أن الهدى : هو الميل ، ويقال فى اللغة : رأيت فلانا يتهادى فى مشيته ، أى يتمايل ، ومنه قوله تعالى :

---

(١) يشير بذلك إلى سبب تأليفه كتاب (تحصيل نظائر القرآن) الذى بين أيدينا ، وأنه وقع فى يده أحد الكتب المؤلفة فى نظائر القرآن ، ولكنها تخالف منهج الترمذى كما أوضحنا ذلك فى المقدمة .

﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾[1]

أى ملنا إليك ، ومنه سميت الهدية : هدية ، لأنها تميل بالقلب إلى مهديها ، وإن القلب أمير على الجوارح ، فإذا هداه الله لنوره : أى أماله إليه لنوره : اهتدى أى : استمال ، وقد قال فى تنزيله :

﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾[2] .

فهذا أصل الكلمة ، ثم وجدنا تفسير[3] الهدى :

١ — البيان : فإنما صار الهدى بيانا فى ذلك المكان ، لأن البيان إذا وضح على القلب بنور العلم : مد ذلك النور القلب إلى ذلك الشيء وأماله إليه .

٢ — الإسلام : وإنما صار الهدى فى المكان الآخر « الإسلام » ، لأنه إذا مال القلب بذلك النور إلى ذلك الشيء الذى تبين له : انقاد العبد وأسلم ، ومد عنقا إلى قبوله .

٣ — التوحيد : وإنما صار الهدى التوحيد فى المكان الآخر ، لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور : سكن عن التردد ، واطمأن إلى ربه فوحد .

---

(١) من الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٣٥ من سورة النور .

(٣) فى الأصل : فسر .

٤ — الدين : وإنما صار الهدى « الدين » فى مكان آخر ، لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور: دان لله ، أى : خضع، والدين : هو الخضوع ومنه قيل للشيء المتضع : « دون » .

٥ — الدعاء : وإنما صار الهدى فى مكان آخر « الدعاء » ، لأنه إذا دعا إلى الله بقلب مستنير : مالت القلوب إلى ذلك النور ، لأن على ذلك الكلام نورا ، لأنه خرج من قلب مستنير .

٦ — بصيرة : وإنما صار الهدى « بصيرة » فى مكان آخر ، لأنه إذا دعا الداعى بقلب ذى نور : ولج الكلام مع النور فى الأسماع فاستنارت الصدور من المستمعين ، فأبصرت عيون نفوسهم ، وهى بصائرها ،فتلك بصيرة النفس ، فإن للفؤاد بصرا ، وللنفس بصيرة ، وكلاهما يبصران فى الصدر ، لأن الصدر : ساحة القلب وساحة النفس ، وقد اشتركا فى هذه الساحة ، ومنه تصدر الأمور ولذلك سمى صدرا ، لأنه مصدر الأمور ، والأعمال منه تصعد إلى الأركان : مادبر القلب ، وما دبرت النفس ، اتفقا ، أو اختلفا فتنازعا .

فالأركان لأيهما غلب بجنوده ، فإذا كانت النفس ذات بصيرة : تابعت القلب فى الحق والصواب ، الذى هو كائن من القلب ، لأن فى القلب المعرفة : والعقل معها والحفظ معها والفهم معها والعلم معها : فهؤلاء كلهم حزب واحد ، فإذا كانت النفس ذات بصيرة : تابعت القلب وجنوده ، وإذا عميت : فإنما تعمى لغلبة الشهوات ، ودخان الهوى ، نازعت

القلب بجنودها ، فغالب ومغلوب ، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا بذلك : عمر بن أبي عمر العبدى[١] ، قال حدثنا محمد بن مخلد الرعينى ، قال حدثنى يعلى بن الأشدق الطائى . قال سمعت عمى عبد الله ابن جراد يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« لَيْسَ الأَعْمَى مَنْ يَعْمَى بَصَرُهُ ، إنما الأَعْمَى مَنْ تَعْمَى بَصِيرَتُهُ » .

وهو قوله تعالى :

﴿ بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾[٢] .

فكل آدمى على بصيرة ، فما دام لاتغلب على بصيرته الشهوات ، فهو مستقيم ، فإذا غلبت الشهوات عليها عميت ، فإذا عميت : استمرت لشرتها وتجلب على القلب شرتها حتى يتابعها القلب ، فإذا تابعها عمى القلب ، قال الله تبارك اسمه :

---

(١) هو عمر بن رباح العبدى ، أبو حفص البصرى الضرير ، مولى عبدالله ابن طاووس روى عن مولاه عبد الله بن طاووس ، وثابت البنانى ، وهشام ابن عروة ، وبهز بن حكيم ، روى عنه : يحي بن حسان ، وأيوب بن محمد الهاشمى وغيرهما .

قال أبو حاتم : هو رد وقال البخارى : هو دجال ، وقال النسائى متروك ويروى الأباطيل ما لا يتابعه عليه أحد ويروى الموضوعات .

انظر تهذيب التهذيب ج ٧ : ص ٤٤٨ .

(٢) من الآية ١٤ من سورة القيامة .

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1] .

٧ — المعرفة : وإنما صار الهدى « المعرفة » فى مكان آخر ، لأنه إذا استنار الصدر : انشرح وانفسح ، فعرف القلب ما يأتى وما يذر فى ذلك الضوء .

٨ — القرآن : وإنما صار الهدى « القرآن »[2] .

٩ — والرسول : فى مكان آخر ، لأن القلب إذا عقل مافى القرآن : مال إلى ما فيه من الأمر والنهى والوعظ .

١٠ — الرشد : وإنما صار الهدى « الرشد » .

١١ — والصواب : فى مكان آخر ، لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور فقد رشد وأصاب .

١٢ — التقوى : وإنما صار الهدى « التقوى » ، لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور فقبله : صار فى الوقاية ، والتقوى هى الوقاية من النار .

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة الحج .

(٢) كما فى قوله تعالى : (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ، وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) الآيتان ٧٦ ، ٧٧ من سورة النمل .

١٣ — التوفيق : وإنما الهدى « التوفيق » ، لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور : وفقه الله للصواب .

١٤ — التوبة : وإنما صار الهدى « التوبة » ، لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور : تاب : والتوبة : هى الرجوع إلى الله .

١٥ — الممر : وإنما صار الهدى « الممر » ، لأن الممر : طريق العباد إلى الله ، فإذا مال القلب إلى ذلك النور : فقد أصاب الممر .

فرجع هذه الأشياء التى صيرت وجوها ذات شعب : إلى كلمة واحدة ، لأن الهدى : هو ميل القلب إلى الله بذلك النور الذى أشرق به الصدر ، فانشرح وانفسح وهو قوله تعالى :

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[1] .

٢ — الكفر

وأما قوله : الكفر على كذا وجه[2] . فالكفر : هو الغطاء ، يقال فى اللغة : « كفرت الشىء » أى : غطيته ، ومنه سميت « كفارة » فى حنث اليمين ، والكفارة للذنوب ، لأن فى ذلك تغطية للذنوب والحنث .

---

(١) من الآية : ٢٢ من سورة الزمر .

(٢) فى الأصل : على كذا وجها .

١ — التكذيب : وإنما صار الكفر « تكذيبا » لأنه لما رده بلسانه ، فقد غطى برده ذلك النور الذى جاء به من عند الله .

٢ — الظلم : وإنما صار الكفر « ظلما » فى مكان آخر[١] ، لأنه لما أنكر النعمة أنها من ولى النعمة : فقد ظلم نفسه .

٣ — الجحود : وإنما صار الكفر « جحودا » فى مكان آخر ، لأنه عرفه معرفة الذهن ، لا معرفة العقل ، فاستنار بمعرفة الذهن كالبرق ، ثم ذهب فأظلم بما هاج من النفس من الحسد والبغى وطلب العلو ، فجحده ومعه معرفة الذهن ، ولم يكن معه معرفة العقل : فيثبت النور ، ويستنير الصدر على الدوام . فجحد لما صار غطاء على القلب ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا ﴾[٢] .

فهذا : يقين النفس ، لا يقين القلب ، لأن يقين القلب من معرفة العقل ، ويقين النفس من معرفة الذهن .

٤ — كفران النعمة ، وإنما صار الكفر « كفران النعمة » فى مكان آخر ، لأنه غطى منة الله عليه . بترك الشكر ، لأن الشكر انفتاح غطاء القلب لرؤية النعم من المنعم ، والكفر : غطاؤه .

---

(١) فى الأصل : بإسقاط « آخر » .

(٢) من الآية : ١٤ من سورة النمل .

٥ — التبرى : وإنما صار الكفر « التبرى » فى مكان آخر ، لأنه إذا صار القلب فى غطاء : افترقت الأبدان بالأهواء التى فيها ، وتبرأ بعضهم من بعض : تعاديا وتباغضا ، وإذا انكشف الغطاء : استنارت القلوب بنور الله وائتلفت القلوب بروحه ، لأنهم آمنوا برب واحد ، فاجتمعت القلوب تأليفاً بما آمنوا ، ألا ترى إلى قوله تبارك اسمه :

﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَافى الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] .

فبالإيمان الخالص المشرق نوره : تأتلف القلوب وتتحاب فى ذاته ، وبالهوى: تختلف ويتبرأ بعضها من بعض ، وهو قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾[2] .

٣ — الشرك

وأما قوله : « الشرك على كذا وجه »[3] ، فإن الشرك : هو التعلق بالشيء ، وإنما سمى شرك الصياد « شركا » من أجل التعلق . فالشرك : أن يجعل لأحد فى ملك الله علاقة ، فيراه مالكا معه .

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الأنفال

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الجاثية

(٣) فى الأصل : وجها

١ — العدل : فإنما صار الشرك فى هذا المكان « عدلا »، لأنه صيره مثله فى الحكم ، والقضاء والتدبير ، والقدرة والربوبية ، والمعادلة ، والمساواة ، كأنه سواه به .

٢ — العبادة : وإنما صار الشرك فى مكان آخر « عبادة » لأنه إنما أشركه فى ملكه ليعبده ويتقرب إليه بعبادته ، رجاء أن ينفعه .

٣ — النسبة : وإنما صار الشرك « نسبة » فى مكان آخر . لأنه نسب مولوده إلى اسم دون الله من بعض عبيده ، فأشركه فى النسبة ، والنسبة أن يقول عبد الله ، فهذا نسبه دون مالكه فسماه « عبد الحارث » ، نسب العبودة منه إلى الحارث ، فصار هذا شركا فى النسبة .

٤ — الرياء : وإنما صار الشرك « رياء » فى مكان آخر ، لأن العبد يعمل : يبتغى بذلك نوالا من الله ، ويتخذ عنده جاهاً ومنزلة : رجاء النوال والمنفعة ، فإذا ابتغى بذلك نوالا من بعض عبيده ، واتخذ عندهم بذلك جاها ومنزلة رجاء المنفعة : فقد أشرك فى العمل غيره دونه .

٤ — سواء

وأما قوله : « سواء على كذا وجه[١] » فالسواء : هو من التساوى[٢]

(١) فى الأصل : وجها

(٢) فى الأصل : التساوه

جاز له أن يسوى شيئاً[1] بشيء ، ويكون عدله ، فهذا أصل الكلمة .

١ — العدل ، وإنما صار السواء « عدلا » ، لأن العدل : هو الشيء الذى يكون وسطا بين الشيئين ، لا يميل إلى أحدهما دون الآخر . مثل لسان الميزان : هو فى وسط العمود قائم ، والوزن هو بلسان الميزان والكفتان[2] لحشو الميزان ، ففى أيتهما كثر الحشو وثقل : مال باللسان وإذا استوى الحشوان فى الكفتين : اعتدل الميزان ، أى استوى لسان الميزان ، فلم تمل إحداهما[3] دون الأخرى .

٢ — لا إله إلا الله : وإنما صارت كلمة « لا إله إلا الله » : سواء بين الخلق ، لأن إلهيته قد أخذت الخلق على السواء ، فهو لكل شيء إله ، وتفسير ذلك : أن عظمته ملأت كل شيء ، وهو قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾[4] .

وقوله أيضاً :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمٰوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ ﴾[5] .

---

(١) فى الأصل : شيء

(٢) فى الأصل : الكفتين

(٣) فى الأصل . إحديهما .

(٤) من الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

(٥) من الآية ٣ من سورة الأنعام

٣ — الوسط : وإنما صار السواء « وسطا » فى مكان آخر : لما ذكرنا بديا ، أن السواء هو الذى يتوسط الشيئين .

٤ — الظاهر : وإنما صار السواء « ظاهرا » فى مكان آخر ؛ لأن العلانية ظهور[1] .

٥ — الشرع : وإنما صار السواء « شرعا » فى مكان آخر ، لأن الطرق التى شرعت كلها تؤدى إلى مكان واحد ، فصارت الشرائع[2] سواء ، أى مستوية .

٥ — قصد الطريق : وإنما صار السواء « قصد الطريق » ،[3] لأنه الطريق المتوسط للطرق .

٧ — الأنصاف : وإنما صار السواء « أنصافا » ، لأن النصف هو المتوسط من الأشياء .

٥ — المرض

وأما قوله : المرض على كذا وجه ، فالمرض هو ممازجة النفس شيئا من غير تلك الأجناس التى ركبت فيها .

١ — الشك : وإنما صار المرض ها هنا « شكا » ونفاقا : لأن النفاق

(١) فى الأصل ظاهر
(٢) فى الأصل : فصار الشرع .
(٣) فى الأصل : فهو .

إذا دخل القلب مازج المعرفة ، والنفاق : هو الريب ، وأصله من مكر النفس ، وذلك أن النفس إذا تحيرت فى معرفة الرب مكرت أى أسرت فى نفسها مايوسوس به العدو إليها ، ومايشير لها الهوى إليه فاليربوع[1] إنما صيرت لجحرها بابين : مكرا ، ولذلك سمى جحرها « نافقا » ، فالنفاق مشتق من ذاك ، وهو قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِى نَفَقًا فِى الْأَرْضِ ﴾[2] .

والنفقة مشتقة منه ، فإن النفقة هو الذى يحوى الشىء فى يده ، أو فى وعاء ثم يخرجه فيصرفه فى وجوه حوائجه ، ومنه قولهم : « هــذه سلعة نافقة » أى تخرج وتتروج ، ولا تبقى كاسدة ، فقلب المنافق مجخى[3] مائل ، لا يستقر منه شىء ببيان ، هو عارف مقر ، ثم تجده من ساعته شاكا مريبا متحيرا يطلب معبوده ، والشك هو : تقبض القلب وانقباضه .

٢ — الزنا : وإنما صار المرض « الزنا » فى مكان آخر ، لأن أصل

---

(١) وهو حيوان ثدىى من القوارض ، يستوطن إفريقيا الشمالية ، وآسيا ، وهو كثير فى مصر ، ويمتاز بطول أرجله الخلفية ، وقصر الأمامية ، وهو سريع الوثب ، يقتات بالنبات والحشرات . انظر الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٨٠ .

(٢) من الآية : ٣٥ من سورة الأنعام .

(٣) الجخو : هو استرخاء الجلد ، يقال : جخى المصلى فى سجوده أى مال وجخى الشيخ : أى انحنى ومال . انظر القاموس المحيط : ج ٤ : ٣١٢ .

الزنا من الفرح ، وما لم يفرح لا يقدر أن يزنى ، ألا ترى أن صاحب المصيبة لما افتقد الفرح : عجز عن قضاء هذه الشهوة وإتيان النساء فى وقت المصيبة ، فالزنا هيجان من فرح القلب ، فإذا مازج فرح الزنا إيمانه: مرض القلب ، وذهبت قوته ، ومرضه : ضعف إيمانه.

٣ — علة الجسد : وإنما صار المرض فى المكان الآخر «علة الجسد» لأن ذلك بلاء مازج العافية ، وحركة مازجت السواكن .

٦ — الفساد

وأما قوله : « الفساد على كذا وجه » ، فالفساد : هو انتقاض الشىء الذى أصلحه الله ، العالم بحسن تقديره وتدبيره ، فإذا انتقض ذلك : تفرق ما اجتمع ، وانتكس ما علا ، وأظلم ما استنار ، وتأخر ما تقدم وخلا ما احتشى ، ووهى ما استقام ، وخمد ما اهتز ، وذل [1] ما عز ، واستكان ما برز .

١ — أعمال المعصية : وإنما صار الفساد « أعمال المعصية » لأن الأرض إنما تقل الآدميين ، وتربى معايشهم بما ينزل من البركة ، وإنما تنزل البركة بترك الفساد ، فإذا ظهرت أعمال المعصية : امتنعت البركة ، فإذا امتنعت البركة : ضعفت الأرض ، وخافت من ربها ، فاشتد عليها

---

(١) فى الأصل : وذبل .

تربية معايش الآدميين ، لأن تلك الأشياء تكون منزوعة البركة ، فإذا نزعت البركة لم يجد أهلها سبيلا أن يصرفها فى طاعة الله ، فازدادت المعاصى ،فالبركة فى انتقاص ، والمعاصى فى ازدياد ، حتى تجأر[1] الأرض إلى الله من ثقل تراكم المعاصى ، فلذلك سمى فساداً ، لأن الأرض وما عليها ومن عليها تكون كما وصفنا بديا .

٢ — فساد التدبير : وإنما صار الفساد « فسادالتدبير » لما ذكرنا بديا

٣ — نقص الثمرات : وإنما صار الفساد « نقص الثمرات » فى مكان آخر لما قلت بديا : أن ذلك انتقاض التدبير .

٤ — تغيير الدين : وإنما صار الفساد فى مكان آخر « تغيير الدين » لأنه إنما تغير دينهم من انتقاض تدبيرهم .

فالأصل ما ذكرنا بديا ، ثم يتشعب فى هذه الأحوال .

٧ — المشى

وأما قوله : المشى على كذا وجه[2] ، فالمشى على وجهين :

(ا) مشى هو نهوض القلب ونيته وقصده إلى الله فى الأعمال يبتغى مرضاته ، ومنه سميت النية ، يقال ناء ينوء ، أى نهض ينهض ، فالنية

---

(١) أى . تتضرع إلى الله بالدعاء ، وتستغيث من هول ما فيها من المعاصى .
(٢) فى الأصل : على كذا وجها .

نهوض القلب إلى الله بعقله ، فشعاع العقل مع شعاع نور الإيمان : امتزجا وصارا إلى الله ، فتلك النية ، وينسب ذلك الفعل إلى القلب ، لأنهما منه خرجا ، وهو مصدرهما ، فالمشى : مضى القلب إلى الله .

(ب) ومشى[١] على القدمين .

فأما الذى ذكره فى الكتاب من قوله :

﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾[٢] .

فهذا بالقلب : يمشى وذلك قوله تعالى .

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾[٣] .

فإذا مشى القلب فبالنور الذى أعطيه ، وهو سراج القلب .

والمشى الآخر قوله تعالى :

﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾[٤]

فهذا بالقدم .

٨ — اللباس

وأما قوله : اللباس على كذا وجه ، فاللباس : هو الغطاء ، إذا غطيت شيئا وغشيته فقد ألبسته .

---

(١) فى الأصل : ويعدى .

(٢) من الآية ٢٠ من سورة البقرة

(٣) من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام (٤) من الآية ٧ من سورة الفرقان

١ ــ التخليط : فإنما صار اللباس « تخليطا »[١] فى هذا المكان ، فهو أن الحق قائم ظاهر فى كل أمر ، فإذا جاء العبد بالباطل فغشاه وغطاه بقول أو فعل : فقد خلط الحق بالباطل ، وألبس الحق باطلا .

٢ ــ السكن : وإنما صار اللباس « سكنا » فى مكان آخر ، لأن الليل إذا غطى الخلق غشاهم بظلمته ، وسكنت النفوس[٢] .

٣ ــ السكن بالنسبة للنساء : وإنما صار اللباس « سكنا فى مكان[٣] النساء » ، لأن الشهوة هائجة فى الرجال بحريقها وشررها ودخانها ، فإذا وجد الرجل النساء : صار وجوده إياها لباساً له . لأنه قد غطى ذلك الشرر والحريق والدخان الهائج من شهوته بوجود هذه المرأة وغشيانها .

٤ ــ الثياب . وإنما صار اللباس « الثياب[٤] » فى مكان آخر ، لأنه يغطى الجسد ويغشيه .

---

(١) كما فى قوله تعالى : (ولا تلبسوا الحق بالباطل) من الآية ٤٢ سورة البقرة .

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى (وجعل الليل سكنا) من الآية ٩٦ من سورة الأنعام .

(٣) كما فى قوله تعالى (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) من الآية ١٨٧ سورة البقرة .

(٤) كما فى قوله تعالى : (ولباسهم فيها حرير) من الآية : ٢٣ من سورة الحج .

٥ — العمل الصالح : وإنما صار اللباس « العمل الصالح »[١] فى مكان آخر ، لأن العمل السىء قد شان جوارحه وجلدة وجهه وبشرته ، فإذا عمل العمل الصالح : غطى نور هذا الفعل ذلك الشين ، وغشاه ، فاستنارت الجوارح والجلدة ، وصار طريا ، وعاد إليه ماء وجهه ، بعد أن كان قد علاه غبار المعاصى ودنسها .

٩ — السوء

وأما قوله : « السوء على كذا وجه » فالحسن والسوء هما ضدان ، ومنه الحسن والسىء من الفعل ، ومنه الحسنة والسيئة ، وهى : الطاعة والمعصية ، ومنه الحسنى وهى الجنة ، والسوأى وهى دار النار . فالحسن والسوء : لزما أصل الشىء . فإذا صار ذلك الشىء فعلا . قيل : حسن وسيء ، فإذا صار إلى الطاعة أو المعصية ، قيل حسنة أو سيئة : فإذا صار إلى المكان ، قيل : حسنى وسوأى ، أى دار الحسنى ، ودار السوأى وهما الجنة والنار ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَيَجْزِى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[٢] .

قيل فى تفسيرها : الجنة ، ومثل قوله تعالى أيضا :

---

(١) كما فى قوله تعالى : (ولباس التقوى ذلك خير) من الآية : ٢٦ من سورة الاعراف .

(٢) من الآية : ٣١ من سورة النجم .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى ﴾[١] .

قيل فى تفسيرها : النار .

فمن الحسن يتولد السرور ، ومن السوء يتولد المساءة ، فيقول : سرنى كذا ، وساءنى كذا ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ » .

فالسرور يظهر على الوجه ، والسوء يظهر على الوجه أيضاً . وذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾[٢] .

وقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[٣] .

فأعلمك أن السرور والسوء : إنما هما صفتان تحلان بالوجه وتولدهما من الحسن الذى يظهر فى الصدر . والسوء الذى يظهر فيه . فالسرور إنما سمى سرورا : لانجلال أسرار الوجه وتوسعه ، ألا ترى إلى قول عائشة[٤] : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسارير وجهه تبرق ، فقال :

---

(١) من الآية : ١٠ من سورة الروم .

(٢) من الآية : ١١ من سورة الإنسان .

(٣) من الآية : ٢٧ من سورة الملك .

(٤) هى عائشة أم المؤمنين : بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وتكنى

« أَلَمْ تَرِيْنَ يَا عَائِشَةُ : أَنَّ مُجَزِّزًا الْمُدْلَجِيَّ[1] نَظَرَ إِلَى أُسَامَةَ ابْنَ زَيْدٍ[2] ، وَإِلَى أَبِيهِ[3] ، فَقَالَ : إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ . . . »

عائشة أم عبد الله بابن أختها عبد الله بن الزبير ، تزوجها النبي (ص) قبل الهجرة لسنتين وهى بنت ست سنين ، وبنى بها وهى بنت تسع ، وهى من أكثر الصحابة رواية عن الرسول ، ولم يتزوج الرسول بكرا غيرها . توفيت ١٧ رمضان سنة ٥٧ هـ . ودفنت بالبقيع . تهذيب الأسماء ج ٢ : ٣٥١ .

(١) هو الصحابى : مجزز بن الأعور بن جعدة بن معاذ بن مدلج كان عارفا بالقيافة وحكى عن النبى صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وكان قد رأى زيدا وابنه أسامة نائمين وقد بدت أقدامهما ورؤوسهما مغطاة فقال إن هذه الاقدام بعضها من بعض ، وكان زيد أبيض وأسامة أسود . وقد أخرج البخارى هـذا الحديث وكذا مسلم فى صحيحهما وكذا أصحـاب السنن . تهذيب التهذيب ج ١٠ : ٤٦ .

(٢) هو أسامة بن زيد الصحابى المعروف وهو مولى رسول الله (ص) وابن مولاه ، وابن مولاته وهو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل ، وأمه أم أيمن بركة روى عنه ابن عباس ، وابن عمر وغيرهما ، أمره الرسول على بعض الجيوش ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحبه ، توفى بالمدينة سنة ٥٤هـ انظر : تهذيب الأسماء واللغات ج ١ : ١١٣ — ١١٥ .

(٣) هو أبو أسامة زيد بن حارثة بن شراحيل ، وهو مولى رسول الله (ص) أصابه سبى فى الجاهلية وقدموا به سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة أم المؤمنين فوهبته للنبى قبل الهجرة ، وتبناه النبى (ص) وكان يدعى

وكان أسامة قد طعن المنافقون فى نسبته ، فلما نظر إليه مجزز ـ وكان قائفا يقفو آثار الأشياء فى الأنساب وغيرها ، وذلك علم عظيم من أعطيه فلله عليه نعمة (أقول : فلما نظر إليه مجزز أثبت أن نسبتهما صحيحة ولا شك فيها) .

وعلم القيافة ، وعلم العيافة ، وعلم النجوم ، وعلم الخط : فهذه علوم أهل منة الله ، قد أعطاها الله للعباد بلوى[1] لهم ، واقتضاهم شكرها ، فأما علم القيافة: فهو ما ذكرنا ، وقد أثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حققه لمجزز المدلجى ، حتى دخل من قوله من السرور ما تجللت أسارير وجهه . وظهر بروقها ، والأسارير : هى الخطوط فى الجبين وعلى الأكف .

وأما علم العيافة : فهو علم زجر الطير ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« الطّيرُ تجْرِى بِقَدَرٍ » .

وأما علم الخط : فكان نبى من الأنبياء يخط وبعث إلى قومه بالخط، وهو قوله تعالى :

زيد بن محمد ، حتى جاء قوله تعالى : (ادعوهم لآبائهم) ، تزوج زينب بنت جحش ثم طلقها ، وقصته معروفة فى القرآن الكريم ، استشهد فى غزوة مؤتة سنة ٨ هجرية .

انظر تهذيب الأسماء ج ١ : ٢٠٢ — ٢٠٣ .

(١) أى : اختبارا وامتحانا لهم .

﴿ ... أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾[1] .

رجعنا إلى ذكر السرور والسوء : فيقول القائل : سرنى ، وهو إذا ولج حسن الشيء إلى[2] الصدر : تأدى ذلك إلى الوجه ، وتبينت أسرار جبينه ، وإنما سميت أسرارا ، وواحدها « سر » لتقبضه ، ومنه سميت « السرة » سرة : لتقبضها وتراكم غضونها ، ولذلك سميت « الصرة » : صرة ، لأنها تجمع وتقبض بعضها إلى بعض ، فحلاوة الشيء ومرارته ، إذا وجدت النفس طعمها : تأدى ذلك إلى الوجه ، فظهوره على الوجه يقبض جلدة الوجه ، حتى تظهر الأسارير وتبرق ، وذاك تهلل الوجه .

ويقول القائل : ساءنى وذلك إنما يظهر على الوجه ، فيذهب بأسارير الوجه ويسوى غضونه ، فسمى سوءا ، لأنه سوأ غضون وجهه من الذبول والاسترخاء ، وذلك من استرخاء النفس . إذا كرهت الشيء استرخت وذبلت وضعفت ، فتأدى ذلك إلى الوجه ، واسترخت جلدة الوجه ، واستوت الأسارير والغضون ، وإذا وجدت النفس ما تحب : فرحت وقويت ، وصارت كالمنتفخة بذلك الفرح ، فتأدى ذلك إلى الوجه ، فتبينت الأسارير على جبينه من القوة التى وجدت النفس . فقيل لهذا : سرور ، ولذلك سوء .

وأصل الحسن : من ضحك الله تبارك وتعالى .

---

(١) من الآية : ٤ من سورة الأحقاف .

(٢) فى الأصل : فى .

وأصل السوء : من ظله ، فإذا ظلل الظل صار غشاء على ما يظهر من الضحك ، فصار سوءا . ومنه سمى الصبح إذا أصبح الناس ، وإذا جاء الليل قيل « مساء » ، وأصبحنا وأمسينا : مأخوذ من الصباحةوالسوء وإنما قيل للصبح « صبح » : لأنه أسفر عن نور النهار ، ويقال فلان صبيح الوجه : لتهلله وإسفاره ، والمساء « مساء » لأنه يأتى بظلمة تغشى النهار وتذهب بضوئه .

فكل فعل أو مكان أو خلق أو شيء من الأشياء كائنا ما كان : حل به الإسفار والضوء ، فقد حل به الحسن ، وقد حسن ذلك الشيء .وكل شيء أو فعل أو مكان أو خلق حل به الغشاء والغطاء والظل فقد حل به السوء وقد ساء ذلك الشيء ، فالاسم منه سيء ، فإذا صار إلى المكان قيل الحسنى ، وهى[1] دار الجنة ، والسوأى وهى[2] : دار النار .

١ — الشدة : فإنما صار السوء فى هذا المكان « الشدة » ، من قوله تعالى :

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[3] .

أى شدة العذاب ، لأن تلك كانت عقوبة حلت بهم من تركهم

---

(١) فى الأصل : هو .
(٢) فى الأصل بإسقاط « وهى » .
(٣) من الآية : ٤٩ من سورة البقرة .

الطاعة » وعملهم المعاصى ، فحل بهم من تركهم الطاعة ، وعملهم المعاصى : السوء الشديد ، وكذلك قوله تعالى :

﴿ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾[1] .

أى : شديد الحساب ، من أجل أنهم معاقبون بالشديد من السوء .

٢ — عقر الناقة : وإنما صار السوء فى مكان آخر « عقر الناقة »[2] لأن الناقة آية من آيات الله ، والآية دليل على الله تبارك اسمه ، فإنما يعرف بالآيات ، والدلالات بالقبول ، فعقرهم الدليل الذى يدلهم على الله : من السوء .

٣ — الزنا : وإنما صار السوء فى مكان آخر « الزنا »[3] ، لأن ذلك سوء ، ستره الله بنور الحشمة حين خلق آدم ، وأمره بستره ، فإذا كشفه بغير حق ، ومن حيث لم يطلق له : صار سوءا .

٤ — البرص : وإنما صار السوء « البرص »[4] فى مكان آخر ، لأن

---

(١) من الآية : ١٨ من سورة الرعد .

(٢) وذلك قوله تعالى : (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ، فعقروها فأصبحوا نادمين) .
الآيات : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الشعراء .

(٣) وهو قوله تعالى : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .
الآية : ٣٢ من سورة الإسراء . وقوله تعالى : (ما كان أبوك امرأ سوء) من الآية ٢٨ من سورة مريم

(٤) وذلك قوله تعالى : (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) . من الآية ١٢ من سورة النمل .

البرص من سمات الله على عبده ، كالكية تكوى مكانا من الجسد ، وهو مقرون بالجذام والجنون ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إِذَا بَلَغَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَمَّنَهُ اللهُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ خِلَالَ : الْجُنُونُ ، وَالْجُذَامُ ، وَالبَرَصُ » .

٥ — الشرك : وإنما صار السوء « الشرك » فى مكان آخر ، لأن الشرك تعليق بمن لاينال ، ولا يرى ، ولا يدرك ، فبقى صاحب الشرك فى الهوى بلا قرار . لأنه قصد للتعليق ولم يتعلق فبقى فى الهوى يهوى ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ[٢] ﴾ .

٦ — الشتم : وإنما صار السوء فى مكان آخر « الشتم » لأنه يصل إلى القلب وجعه ، فيتأدى إلى الوجه سوء ، وكذلك فى شأن المعصية .

٧ — المعصية : وإنما صار السوء فى مكان آخر « المعصية » ، لأنها تسىء الوجه .

٨ — الفقر : وإنما صار السوء فى مكان آخر « الفقر » للبؤس ، ونزوع اللين والعطف منه ، وذاك مما يسىء الوجه .

---

(١) من الآية : ٣١ من سورة الحج .

١٠ — الخزى

وأما قوله : الخزى على كذا وجه » ، فالخزى : زوال النعمة ، فإذا زالت عنه نعمة الدنيا : عقوبة ، فهو : خزى الدنيا ، وإذا زالت عنه نعمة الدين ، فهو خزى الآخرة .

والخزى : الاسم ، والخزاء مشتق منه كالمصدر ، والخسى بالسين : الفرد ، والزكا : الزوج[١] ، فكل شيء ذهب تزاوجه فهو خسأ ، وكل شيء ذهبت نعمته وخلفه البؤس : فهو خزى ، وقد خسى الشيء فهو خاسيء ، ومنه قوله تعالى :

﴿ اخْسَأُوا فِيهَا ولاَ تُكَلِّمُونِ ﴾[٢] .

وأيضا منه قوله تعالى :

﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً ﴾[٣] .

فهذا كله على مزايلة[٤] ما ضم إليه ، فصار منفردا عن ذلك الشيء .

---

(١) يقال : أخسأ أم زكأ ، أى أو ترا أم شفعا ، فالخسى هو الفرد ، والزكا هو الزوج . انظر أساس البلاغة ص ٢٣١ .

(٢) من الآية : ١٠٨ من سورة المؤمنون .

(٣) من الآية : ٤ من سورة الملك .

(٤) أى مباينة ما ضم إليه ، لأن التزايل هو التباين والمفارقة .

فالبصر أعطى قوة ، فلما أعمله فأنصبه خسىء لانقطاع المدد من النور ، لأن البصر إنما يأخذ مدد النور من الروح ، والروح يأخذ من نور الحياة ، فإذا أعياه بأعماله : تعرى وانحسر ، أى : بقى حاسرا بلا مدد ، فانفرد عن المدد ، فقيل خسىء فهو خاسىء » أى انفرد عن المدد . وكذلك قوله « اخسأوا » فإنما كانوا معذبين بألوان العذاب فى النار ، ونعمة اللسان باقية معهم يتكلمون ، وفى ذلك تفريج لهم وترفيه ، فلما جاءوا بكلمة المجادلة والخصومة مدخولة وهى قولهم :

﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا[1] ﴾ .

أخسأهم فأخرسوا ، فانفردوا عن كل خير ونعمة .

١ ــ العذاب : وإنما صار الخزى تفسيره فى مكان آخر العذاب[2] لأن العذاب هو : منع النعمة عن العبد ، ولذلك سمى عذابا ، ولذلك سمى الماء العذب عذبا ، لأنه منع عن المر أن يخالطه ، ومنه قول على ـ رضى الله عنه ـ « أعذبوا نساءكم من الخروج » ، أى : امنعوا .

٢ ــ الهلكة : وإنما صار الخزى الهلكة فى مكان آخر ، لأن الهلكة تلاشى النعمة عنه وفقدها .

---

(١) من الآية : ١٠٦ من سورة المؤمنون .

(٢) كما فى قوله تعالى : (كشفنا عنهم عذاب الخزى) من الآية ٩٨ من سورة يونس .

٣ ــ الهوان : وإنما صار الخزى الهوان فى مكان آخر ، لأن الهوان يؤدى إلى نبذه والتخلى عنه .

٤ ــ الذل : وإنما صار الخزى الذل فى مكان آخر ، لأن الذل يؤدى إلى الكسر والسلب ، لأن العزيز يرفع ويجبر ، فإذا رفع العبد بخير : رفعه من الكسر ، واكتسى بعد السلب ، وإذا ذل : انكسر وتعرى لأنه قمع وعرى .

٥ ــ الفضيحة : وإنما صار الخزى الفضيحة[١] فى مكان آخر ، لأن الفضيحة : خروج من ستر الله ، وكشف العورة ، فإذا خرج من الستر : خزى ، أى خسى وانفرد عن ستر الله .

١١ ــ باءوا

وأما قوله : باءوا على كذا وجه ، فقوله « باءوا » أى حلوا فالحلول والنزول واحد ، فقوله « باءوا » أى : استوجبوا[٢] ، لأن الوجوب : السقوط والحلول ، يقال للشمس إذا غربت قد وجبت ، وقد قال تعالى فى تنزيله فى شأن النسك :

---

(١) كما فى قوله تعالى : (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى) من الآية : ٧٨ من سورة هود .

(٢) كما فى قوله تعالى : (وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة) من الآية ١١٢ من سورة آل عمران ،

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾[1] .

أى : سقطت وحلت بالأرض .

١ — النزول : وإنما صار فى مكان آخر النزول[2] ، فهو قريب من الأول .

٢ — التوطن : وفى مكان آخر التوطن[3] ، لأنه حلول ، فإذا حل وثبت ، فهو توطن .

١٢ — الرحمة

وأما قوله : الرحمة على كذا وجه : فالرحمة جارية من العرش على الخلق ، كالسيل ، ثم ينقسم ذلك على الجنة ، وعلى أهل السموات ، وأهل الأرضين إلى الثرى ، كل ذلك يحتظى منها بمقدار ، فالجنة تحتشى منها ، وتتزين بها إلى يوم القيامة : فذاك حظها منها ، وحظ الملائكة منها صفو العبادة ، وحظ الآدميين الموحدين منها : التوحيد ، وحظ

---

(١) من الآية : ٣٦ من سورة الحج .

(٢) كما فى قوله تعالى : (وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا) من الآية : ٧٤ من سورة الأعراف .

(٣) كما فى قوله تعالى : (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم) من الآية : ٩ من سورة الحشر .

الآدميين الأعداء منها : نعمة الدنيا وزينتها وبهجتها ، مغترين بتلك النعمة والبهجة ، ومن الاغترار قالوا :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا[1] ﴾ .

وقال أيضاً :

﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى[2] ﴾ .

ففي حشو كل رحمة خير كثير ، والنبوة خرجت من الرحمة ، قال الله تبارك اسمه :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ[3] ﴾

فإنما اختلفت الألفاظ في تفسير الرحمة فقالوا :

١ — النبوة : الرحمة هي النبوة .

٢ — الإسلام : وفي مكان آخر « الإسلام » .

٣ — الرزق : وفي مكان آخر « الرزق » .

---

(١) من الآية : ٣٦ من سورة الكهف .

(٢) من الآية : ٥٠ من سورة فصلت .

(٣) من الآية : ٨٦ من سورة القصص .

٤ — النصر : وفى مكان آخر « النصر » .

٥ — الفتح : وفى مكان آخر « الفتح ».

٦ — المودة : وفى مكان آخر « المودة » .

٧ — العافية : وفى مكان آخر « العافية » .

٨ — المطر : وفى مكان آخر « المطر[١] »

٩ — القرآن: وفى مكان آخر « القرآن » :

١٠ — الجنة : وفى مكان آخر : الجنة » .

لأن هذه الأشياء كلها تخرج إلى العباد من الله من باب الرحمة ، والرحمة تجلبها على العبد من الله ، فالرحمة تسعى إلى العباد بهذه الخيرات والبر واللطائف : سعى الوالدة الشفيقة بالرقة ، بل هى أشد وأسرع .

١٣ — الفرقان

وأما قوله : الفرقان على كذا وجه : فالفرقان أصله : الفرق بين الحق والباطل ، إلا أنه أخرجه مخرج فعلان ليكون عليه الفرق فى الشبع والوفارة .

---

(١) كما فى قوله تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) من الآية : ٥٠ من سورة الروم .

١ — النور : وإنما صار الفرقان « نورا » لأنه يفرق بين الحق والباطل ، فيحول بين الحق والباطل ، وبين الاختلاط بالحق ، وهو قوله تعالى :

﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا[1] ﴾ .

أى نورا على قلوبكم يفرق بين الحق والباطل على قلوبكم ، فذاك نور من وجهه الكريم ، من حظيرة القدس ، يجعله ثوابا عاجلا عن ا تقواه ، فيكون ذلك النور : مانعا لكلمة الباطل أن تغشى نور الحق ، فلا يكون لصاحبه لبس[2] فى الأمور ، فهو يعاين حقوقه فى صغائر الأمور فيما دق ، وفيما جل ، ويخرق عن قلبه علائق النفوس ، فيقطع الأسباب ، وينفرد العبد لربه بذلك النور .

٢ — الخروج من الشبهة : وإنما صار الفرقان فى مكان آخر : الخروج من الشبهة ، لما وصفنا بديا .

٣ — النصر : وإنما صار الفرقان « النصر »[3] فى مكان آخر ، لأن

---

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الأنفال .

(٢) أى تخليط وتخبط .

(٣) كما فى قوله تعالى : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) من الآية : ٤١ من سورة الأنفال .

النصر إنما خرج إلى العبد من الملك ، وهو ذلك النور الذى قام بين الحق والباطل ، فمنع الباطل عن الخلاط .

١٤ — قانتون

وأما قوله : قانتون[1] على كذا وجه ، فالقنوت : المقابلة ، وهو أن تقابل بوجهك وبدنك عظمته ، فتقف بقلبك بين يدى عظمته ، وتقابل ببدنك الوجهة التى وجهت لها ، وهى معلمه ، وهى : الكعبة ، فذاك منه إعظام له ، ولذلك قيل : القنوت « الطاعة » ، لأن الطاعة من الإعطاء ، ويقال : أطاع وأعطى ، فأطاع بقلبه وبدنه ، فما كان بقلبه وبدنه يقال : أطاع ، وما كان من ماله يقال : أعطى ، ألا ترى أنه قال : أعطى من نفسه ما أردنا ، وأعطى من قلبه ما أردنا ، فتلك الطاعة ، وأما المعصية التى هى ضد الطاعة ، فامتناع النفس عندما دعيت ومدك الحق إليه ، فإذا أشتد وامتنع : قيل عصى ، واعتصى ، وتعيص ، أى : اشتد ولم ينقد ولم يلن ، وإذا دعوته فأجاب ، ومد الحق العنق إلى الدعوة فانقاد ، قيل أطاع أى أعطى من نفسه ما أريد منه .

---

(١) كما فى قوله تعالى : (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) من الآية : ٢٦ من سورة الروم .

١٥ — « الذكر »

وأما قوله : الذكر على كذا وجه ، فالذكر هو ركض[1] القلب إلى الله ، واهتياجه من حبه ، وشوقه ؛ فكل مؤمن حبه له ، وشوقه إليه كائن فيه ، ولكن لايظهر عنده لأنه بقى لحب الشهوات ، نخفى على هذا المؤمن المخلط المشغول بنفسه ، وإنما يظهر ذلك عند الأولياء : للهيج والغلبة ، فإذا هاج : فإنما يهيج لرياح البهجة عند هبوبها ، فإذا تحركت رياح البهجة فى ملك البهجة : هاج الذكر من قلوب الموحدين ، فإذا ذكروه هاجت الرياح المتحركة ، فعندها يطيب الذكر من قلوب المؤمنين على قدره ، وعندها يقع المشتاقون فى أودية الحنين ، وتقع قلوب الموحدين فى بحار الوله .

فبدو ذكر العباد من الله تبارك اسمه ، لأن الله تبارك اسمه فرح بعباده الموحدين ، ومن باب الفرح أهدى إليهم التوحيد ، ومن باب المعرفة خلقهم ، ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَلّهُ أفْرَحُ بِتَوْبَةِ العَبْدِ : مِنْ رَجُلٍ ضَلَّ بَعِيرُهُ فى مَفَازَةٍ مُهْلِكَةٍ فَمَا زَالَ يَجِدُّ فِى طَلَبِهِ حَتَّى أَيِسَ مِنْهُ ، وَتَوَطَّنَ لِلْمَوْتِ ، فَرَجَعَ إلى مَكَانِهِ الَّذِى أَضَلَّهُ فَوَجَدَهُ ، عَلَيْهِ زَادُهُ وَسِقَاؤُهُ » .

---

(١) أى سير القلب ، كما تقول : ركضت النجوم فى السماء ، أى سارت .

فبدو الذكر من تحرك رياح البهجة بالعباد الأحباب وهم : الموحدون ، فإذا تحركت هناك : تحرك فرح المؤمن بالله ، فاعترض الذكر فذكره ، فإذا ذكره هاجت البهجة كلها فتوسع العباد فى الذكر وطاب .

١ — الصلاة : فإنما صار الذكر تأويله فى هذا المكان الصلاة[١] لأن الصلاة إنما هى أقوال وأفعال ، وأقوالها فى العدد أكثر من أفعالها وفى الوزن أوزن من أفعالها وفى الملكوت أشهر وأعظم وأنفذ سلطانا من أفعالها فالغلبة للذكر فى كل وقت من الصلاة ، وعلى كل حال . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّمَا أُمِرُوا بِالطَّوَافِ وَالسَّعْيِ وَرَمْيِ الْجِمَارِ وَالْمَشَاعِرِ : لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ » .

فأمرنا بالصلاة وفى كل فعل منها ذكر ، وأمرنا بالحج وفى كل فعل منه ذكر ، وأمرنا بالجهاد ، وفى كل ذلك تنزيل ، أمرنا بالذكر فيه ، فقال تعالى :

﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً ﴾[٢] .

---

(١) كما فى قوله تعالى (إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى) من الآية ٣٢ من سورة ص .

(٢) من الآية : ٤٥ من سورة الأنفال .

وأما ذكره باللسان ، فإن ذلك إفاضة الذكر وتشهيره ، لتقوى السموات والأرضون والجبال وتشتد ، فإن السموات والأرضين مسخرات لنا ، والجبال أوتاد الأرض ، والأرض مهادنا وبساطنا ، وفراشنا ومستقرنا ، وكذلك سماها فى تنزيله ، والسماء موضع أرزاقنا ، منها تنزل من تحت العرش ، وهو ماء الحياة ، فتحيا به أرضنا فتنبت ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[1] .

فروى عن سعيد بن جبير[2] أنه قال : « الرزق المطر ، وما توعدون: الثلج » ، وقال : وكل عين دائمة لا تنقطع فهى من الثلج .

حدثنا بذلك : داود بن حماد القيسى ، قال حدثنا يحي بن يمان[3]

---

(١) الآية : ٢٢ من سورة الذاريات .

(٢) هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الكوفى روى عن ابن عباس وابن الزبير وابن عمرو وأبى سعيد الخدرى ، وروى عنه أشعث بن أبى الشعثاء وجعفر بن أبى المغيرة وغيرهما . قتله الحجاج صبرا فى شعبان سنة ٩٥ هـ .

تهذيب التهذيب : جـ ٤ : ص ١١ — ١٤ .

(٣) يحي بن يمان : هو يحى بن يمان العجلى ، أبو زكريا الكوفى ، روى عن أبيه . وهشام بن عروة ، والأعمش ، وسفيان الثورى وغيرهم روى عنه : يحي بن معين وأبو سعيد الأشج وغيرهما . وكان من أكثر أصحاب الثورى رواية عنه ، قال هارون بن حاتم : مات سنة ١٨٨ هـ .

انظر تهذيب التهذيب جـ ١١ : ٣٠٦ — ٣٠٧ .

وأشعث القمي[١] ، عن جعفر[٢] ، عن سعيد بن جبير وقد قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾[٣] .

فقال : خاشعة : أى ميتة ، وإنما تهتز وتتحرك وتربو للحياة التى حلت بها ، ثم بين ذلك فقال :

﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾[٤] .

---

(١) هو أشعث بن إسحاق بن سعد بن مالك . . . الأشعرى القمى روى عن الحسن البصرى ، وجعفر بن أبى المغيرة وغيرهما . وروى عنه : جرير بن عبد الحميد ، ويحى بن يمان ، ذكره ابن حجر من طريق أشعث عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير .

أنظر : تهذيب التهذيب : جـ ١ : ٣٥٠ .

(٢) هو جعفر بن أبى المغيرة الخزاعى القمى ، روى عن سعيد بن جبير ، وعكرمة وشهر بن حوشب وغيرهم ، روى عنه : مطرف بن طريف ، ويعقوب ابن عبد الله القمى ، وأشعث القمى وغيرهم .

انظر تهذيب التهذيب : جـ ٢ : ١٠٨ .

(٣) من الآية : ٣٩ من سورة فصلت .

(٤) نفس الآية السابقة .

وقال تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾[1] .

فذلك ماء الحياة ، ثم قال جل شأنه :

﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾[2] .

فإذا أظهر المشرك شركه . وأظهرت اليهود والنصارى الفرية على الله : كادت السموات أن تنفطر ، والأرض أن تنشق ، وتخر الجبال هدا[3]، لعظيم الهول الذى حل بهن من عظيم الفرية ، فإذا سبح المؤمن فقد نزهه عن الفرية ، وإذا وحده ، فقد نزهه عن العلائق ، وحمده عن كفران الموحدين ، ومجده عن غفلة المؤمنين ، وقدسه عن وساوس المخاطين : اشتدت السموات والأرضون والجبال ، ورجعت القوى إليهن ، وازددن قوة ، فلذلك ندب المؤمنون إلى إفاضة الذكر باللسان من أجل السموات والأرضين والجبال والبحار والملائكة والشمس

---

(٢) من الآية : ١١ من سورة ق .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا

والقمر والنجوم وجميع الخلق ، ولله فى الأرض سوى الثقلين جنود لا يعلمهم إلا هو ، وقد قال فى تنزيله :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾[1] .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« خَلَقَ اللهُ فى الأَرْضِ أَلْفَ أُمَّةٍ ، سِتمائَةٍ مِنهاَ فى البَحْرِ ، وَأَرْبعُمائَةٍ فى البرِّ ، وَإِنَّ أَوَّلَهاَ هَلاَكاً الجَرَادُ ، فإِذَا أُهْلِكَ الجَرَادُ ، تَتَابعَتْ الأُممُ كُلُّهَا هَلاَكاً » .

فهذه الأمم كلها والسموات والأرضون والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والملائكة وجميع الخلق : كلهم يسجدون له ، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وقد قال تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّموَاتُ السَّبعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[2] .

فالكافر يسجد ويسبح ظله ، وجثته معطلة ، لأنه لا شيء ، ولا يعبأ الله به ، وهو وقود النار وطعامها ، أى : حطمها وحشوها ، وهو

---

(١) من الآية : ٣١ من سورة المدثر .

(٢) من الآية : ٤٤ من سورة الإسراء .

عدو الله ، عداء هربا منه ، فحرم تسبيحه وسجوده ، فصيره لا شيء ، ولا أحد ، ولا يعبأ به ، وذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾[1].

أى لولا توحيدكم ، ولذلك عظم الإثم فى قول الرجل لأخيه المؤمن « يا لا أحد » ، لأن هذا اسم لزم الكافر . فالمؤمن يسجد ويسبح ويقدس ويمجد ويوحد ويحمد ، فهو إمام الخلق فى ذلك ، وإنما صار إماما : لأن الخلق كلهم مجبورون على ذلك ، والآدمى ليس بمجبور ، بل هو مستعمل فلذلك صار إمام الخلق والخليقة فى هذه الأشياء التى ذكرنا ، فإذا صارت الأمور إلى الله فإنما تعرض عليه أحوال الموحدين من بين الأمم التى فى البر والبحر ، فأمور الآدميين سميت « أعمالا » ، وأمور من سواهم لا تسمى « عملا » ، وإنما تسمى « فعلا » و « أمراً » ، قال الله تبارك اسمه فى ذكر الملائكة :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2] .

وسائر الخلق فى سخرة الآدميين ، والآدمى فى خدمة الرب تبارك اسمه ، فأمور أهل السخرة وأمور الآدميين : أعمال ، وإنما سميت : « أعمالا » : لأنه مشتق من العلامة وهى العلم ، فإنهم أعطوا معرفة الفطرة

---

(١) من الآية : ٧٧ من سورة الفرقان .

(٢) من الآية : ٦ من سورة التحريم .

أعنى جميع الآدميين — برهم وفاجرهم — ، ومن معرفة الفطرة : دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ، فلما من الله تعالى على المؤمن بتوحيده : برز نور توحيده إلى الصدر ، فذاك النور الذى فى صدره : علامة لما فى قلبه من التوحيد ، فقيل علم ، ثم أمر بأمور ، فلما ائتمر بتلك الأمور وفعلها : سمى ذلك منه عملا ، لأنه علامة ما فى الصدر ، فقيل لما فى الصدر « علم » ، ولما فى الجوارح : « عمل » ، وكلاهما ثلاثة أحرف ، قدم العين مرة وأخر الميم مرة أخرى ، وكلاهما أريد به العلامة ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ(١) ﴾ .

وفى قراءة أخرى :

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ .

يعنى به — عيسى بن مريم — ، فإنما صارت أمور الموحدين أعمالا : للزومها اسم العمل ، لأنه علامة ما فى قلبه من نور التوحيد ، وأمور المشركين يلزمها اسم العمل لأنه علامة ما فى قلبه من ظلمة الشرك ونقض التوحيد . فإنما خص الأول بالعمل من بين الخلق لأنه ممتحن مبتلى ، فسلك الشرك فى قلوب المجرمين ، وأجرى التوحيد فى قلوب المحبوبين ،

---

(١) من الآية : ٦١ من سورة الزخرف .

ثم دعاهم إلى أن يقولوا : لا إله إلا الله ، وإلى الوفاء بما فى هذه المقالة : من الطاعة له ، فمن نطق به ، وقام بوفائه قبولا له وعزما عليه : سمى أمره عملا حسنا ، ومن أبى أن ينطق به ، وذهب برقبته عن العبودة والوفاء له بذلك : سمى أمره عملا سيئا . ولا يقال لمن سوى الآدميين أن لهم أعمالا ، بل يقال : أفعالهم وأمورهم ، لأنهم لم يبتلوا ولم يمتحنوا وهم مجبورون على تلك الأمور والافعال : فالآدميون الموحدون : من الرأفة أظهر خلقهم ، وبالرحمة طهرهم ، وبالمحبة حلاهم وطيبهم ، وبنور البهاء زينهم ، وبالجود ستر عليهم ذنوبهم وجاد بالغفران لهم ، وبالعظمة قربهم ومكن لهم بين يديه وصيرهم خدما وقلوبهم خزائنه ، فلم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ، بل صيرهم فى قبضته ، وأمسكهم بين أصبعين من أصابعه ، يقلبها كيف يشاء[1] ، وبسطها قبالة وجهه الكريم : فمن لحظ إليه : صرف عنه شر الدنيا والآخرة ، ومن نظر إليه : لم يعذبه أبدا ، وأوجب له دار السلام بتلك النظرة الواحدة ، والملائكة وسائر الخلق والخليقة : لحظ إليهم من ملك الجبروت ، فملأهم من خوفه ، وقهرهم بجبره ، فانقطع الخطاب والخصام ، فمروا فى السخرة منقادين لله فعلة للآدميين فعل السخرة فتكون السخرة منهم قواما للخدمة ؛ ولولا السخرة لم تعم الخدمة ، فنحن معاشر الآدميين نسعى إلى الله بالخدمة مخلصين له ، ولذلك أمرنا بالدعاء فى الوتر بقوله : « إياك نعبد ، ولك

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء » .

نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد » أى : نخدم ، وهى منزلة من السماء وعدها أبى بن كعب[١] سورة متلوة من القرآن ، والسورة الأخرى : « اللهم إنا نستعينك . . . » ، فهما سورتان فى مصحف أبى بن كعب ، وقال أنس بن مالك[٢]: « والله إن نزلتا إلا من السماء » .

فالسعاية والخدمة لنا ، والسخرة لسائر الخلق ، فالسعاية بالقلوب ، والخدمة بالأبدان ، فإنما تتم الخدمة بالسعاية ، وقد قال فى تنزيله :

﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[٣] .

---

(١) هو أبى بن كعب بن قيس بن عبيد . . . بن مالك النجار يقال له : أبو الطفيل ، سيد القراء ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه عمر بن الخطاب وأنس بن مالك وأبو موسى الأشعرى ، أمره عثمان بن عفان رضى الله عنهما أن يجمع القرآن ، توفى فى خلافة عثمان سنة ٣٢ هـ .
تهذيب التهذيب جـ ١ : ١٨٧ — ١٨٨ .

(٢) هو أنس بن مالك بن النضر . . . الأنصارى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نزيل البصرة ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم . روى عنه الحسن البصرى وثابت البنانى وحميد الطويل وابن سيرين وغيرهم توفى سنة ٩٣ هـ .
انظر تهذيب التهذيب جـ ١ : ٣٧٦ — ٣٧٩ .

(٣) من الآية : ٩ من سورة الجمعة .

وقال أيضا :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ[١] ﴾ .

فالسعى : بإرادة القلب ، وقد قال سبحانه :

﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى[٢] ﴾ .

فإنما تجزى على قصد القلوب والنفوس المشتركين فى الإرادات والنيات ، فسائر الخلق يصيرون ترابا ، وتطوى السموات والأرضون وترد إلى حيث شاء الله ، وكذلك الشمس والقمر ، ويبقى الثقلان : الجن والإنس . فجزاء الآدميين : دار الله ، ولقاء الله فى داره ، وجزاء الجن — ممن وحد الله وأطاعه — : النجاة من النار . ثم الله أعلم إلى أين مصيره ، والملائكة زوار أهل الجنة ، وحملة الهدايا ، ومنهم قهار جهنم وخزنتها .[٣] فالبشرى للآدميين ، والنذارة للجن ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾[٤] .

ولم يقل مبشرين ، وقال سبحانه فى سورة الجن .

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة الإسراء .
(٢) من الآية : ١٥ من سورة طه .
(٣) فى الأصل : وقهارتهم وخزانهم ، وهذا لا يناسب ما قبله .
(٤) من الآية : ٢٩ من سورة الأحقاف .

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾[١] .

وقال للموحدين والآدميين :

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّات تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[٢] .

وقال جل شأنه :

﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّات تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[٣] .

فهؤلاء خدم فى دار الدنيا ، وملوك فى داره غدا . لما أعتقهم من الخدمة صيرهم أحبابا أحرارا ، فإنما صارت أمور الآدميين تسمى عملا ، من أجل ما قلنا ، أنهم ممتحنون ومبتلون ، فصارت أمورهم علامة ما فى الباطن لاختبار سرائرهم التى هى من الله عليهم ، ولذلك قيل بالأعجمية : « كار » وهو بالعربية : افعل . وقيل للموحد « كاردار » لأنه يفعل ، ويجيء به إلى المعرض ، فيعرض على ربه يوم العرض لقبض الجزاء « فالفعل هو بالأعجمية « كادار . . » والعمل « كاردار » أى : يعمل ويجيء به ، فبقوله

---

(١) من الآية : ١٣ من سورة الجن .
(٢) من الآية : ٨٩ من سورة التوبة .
(٣) الآية : ٧٢ من سورة التوبة .

« دار » صار ذلك فعلا ، لأنه يجىء بعلامة ما كان فى قلبه لله من المعرفة والتوحيد .

٢ — الخوف : وإنما صار الذكر فى مكان آخر تأويله « الخوف » فمن أجل أنه لا يهيج الخوف إلا من الذكر ، فإنما نسب إلى الخوف لأنه ذكر بالعز والعظمة .

٣ — الخبر : وإنما صار الذكر « خبرا » فى مكان آخر ، لأنه المبتغى من ذلك خبر إبراهيم ، فأمر بأن يذكر ذلك الخبر لهم حيث قال :

﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾[1] .

٤ — الحفظ : وإنما صار الذكر فى مكان آخر « الحفظ »[2] ... ...[3] ، بأن يكون على الدوام ذلك الذكر ، فالحفظ قرين العقل وأيد الله هذه الأمة بالحفظ حتى قووا على حفظ القرآن ، فقرأوه عن ظهر قلب ، وقرأت سائر الأمم كتبهم نظرا من الصحف ، لأنهم لم يعطوا ذلك ، وإنما أعطيته هذه الأمة ، فمن الحفظ يبدو العلم ، لأن العلم فى الصدر ، ومستودعه الحفظ ، وعند الحاجة تظهر فى الصدر بين عينى

---

(١) من الآية : ٤١ من سورة مريم .

(٢) كما فى قوله تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) الآية : ١٧ من سورة القمر .

(٣) يوجد مكان النقط فراغ بالأصل .

الفؤاد صورة الحروف المنتسخة فيها ، مثل ينبوع العين تجرى تسلسلا شيئاً بعد شيء على المواترة والمتابعة .

٥ — الوعظ : وإنما صار الذكر « وعظا » فى مكان آخر ، لأنه لايخلو الوعظ من ذلك .

٦ — الشرف : وإنما صار الذكر « الشرف[1] » فى مكان آخر ، لأنه لا يكون شرف حتى يذكر الله ، فيكون بذلك الذكر مشرفا على الناس فى الدنيا وفى القيامة .

٧ — القرآن : وإنما صار الذكر « القرآن[2] » فى مكان آخر ، لأنه محشو بالذكر لأنه إنما هو فعله وصنعه ، وذكر ملكه وقدرته ، وجنته وناره ، فبالقرآن يذكر لأنه كلامه .

٨ — الجهاد : وإنما صار الذكر « الجهاد » فى مكان آخر ، لأنه إنما يجاهد عن « لا إله إلا الله » ، ولإقامتها ، وللذب عنها ، فذلك الفعل هو ذكر .

٩ — أم الكتاب : وإنما صار الذكر « أم الكتاب[3] » الذى عند

---

(١) كما فى قوله تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) من الآية : ٤٤ من سورة الزخرف .

(٢) كما فى قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الآية : ٩ من سورة الحجر .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : (. . . منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) من الآية ٧ من سورة آل عمران .

وأيضا : قوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) الآية ٣٩ من سورة الرعد .

الله ، لأن جميع الكائنات إلى قيام الساعة فيها ، فتلك قضية الله وتقديره وتدبيره ، يجرى من ذلك مجرى الإمام ، وهو الذكر الحكيم إلى العرش ، ومنه إلى الثرى ، فجميع الكتب ذكر الله بذكر الخلق وأمورهم فالإمام إنما سمى إماما لأن الكتب كلها فى هذا الإمام ، ومنه خرجت الكتب وسائر أمور الخلق ، لأن سائر الخلق سبحوه ، وقد سوا له من ملك الجبروت ، والآدميون : سبحوه ، وقد سوا له من ملك الحب ، ومن ملك الجود ، ومن ملك الرأفة ؛ فصار فعلهم إماما ، وفعل سائر الخلق تبعاً ، إذا عرض على الله ، فسائر الخلق يخرج هذا منهم إلى الله من معدن الخوف والخشية ، والآدميون : يخرج هذا منهم من معدن الحب والجود ببذل النفوس ، وعاملوه على الأنس والرغبة فى مقام الهيبة ، فلذلك صارت أفعالهم وأقوالهم : إماما لأفعال الخلق ، وسائر الخلق تبع لهم فى ذلك .

وروى عن مخلد بن يزيد ، عن حريز بن عثمان الرحبي[1] ، عن

---

(١) هو حريز بن عثمان بن جبر بن أبى أحمر بن أسعد الرحبي الحمصى ، روى عن عبد الله بن بسر المازنى الصحابى ، وخالد بن معدان ، وشرحبيل ابن مسلم . روى عنه : ثور بن يزيد الرحبي والوليد بن مسلم وإسماعيل بن عياش وغيرهم ولد سنة ٨٠هـ وتوفى سنة ١٦٣هـ . انظر .

تهذيب التهذيب . جـ ٢ . ٢٣٧ — ٢٤٠ .

عبد الله بن بسر اليحصبي[١] ، قال سمعت أبا أمامة[٢] يقول : «ما من عبد يسبح تسبيحة إلا سبح الله ما خلق من شيء ، قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ[٣] ﴾ .

وما من عبد يكبر تكبيرة : إلا ملأت ما بين السماء والأرض ، وما من عبد يحمد تحميدة : إلا خففت عن كل ذات حمل حملها ، وما من عبد يهلل تهليلة ينهنهها[٤] دون العرش شيء ، ولذلك قيل : تهليل ، لأن الإهلال : رفع الصوت ، ولذلك سمى الهلال ، لأن الناس يرفعون أصواتهم برؤيته ، ولذلك قيل فى شأن الإحرام : « أهل بالحج » ،

---

(١) هو عبد الله بن بسر بن أبى بسر المازنى القيسى ، له ولأبيه صحبة ، سكن حمص . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن أبيه وأخيه ، وروى عنه أبو الزاهرية ، وحريز بن عثمان الرحبى . مات سنة ٨٨ هـ وهو آخر من مات من الصحابة بالشام . وقيل توفى سنة ٩٦ هـ .

انظر تهذيب التهذيب : جـ ٥ : ١٥٨ — ١٥٩ .

(٢) هو صدى بن عجلان بن وهب : أبو أمامة الباهلى الصحابى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن عمر وعثمان وعلى ، وروى عنه مكحول الدمشقى ، وشهر بن حوشب ورجاء بن حيوة . توفى سنة ٨٦ هـ .

انظر : تهذيب التهذيب : جـ ٤ : ٤٢٠ .

(٣) من الآية : ٤٤ من سورة الإسراء .

(٤) يقال : نهنه فلانا أى زجره وكفه فتنهنه ، فالمعنى لا يكفها ولا يمنعها شيء دون العرش . انظر المعجم الوسيط جـ ٢ : ٩٦٨ .

لرفع الصوت بالتلبية ، فإنما قيل تهليل لمن تكلم بكلمة الإخلاص وهى : « لا إله إلا الله » — وإن خفض الصوت — : لأن صوته هناك موجود عند ذى العرش ، لاينهنهه شيء ، حيث ينتهى الصوت بنوره الذى خرج معه إلى العرش ، فيقف بين يدى الله ؛ وإنما قيل فى الحمد : إنه يخفف عن كل ذات حمل حملها : لأن الشكر قد أثقلت الخلق أعباؤه فإذا حمد الآدمى : خفف أعباء الشكر عن كل ذات حمل مسخر حمل سخرته ؛ وإنما قيل فى التكبير : إنه يملأ ما بين السماء والأرض ، لقوله تعالى :

﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ[1] ﴾ .

وروى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال :

« يَقُولُ اللهُ : الْعَظَمَةُ إِزَارِى ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى ، فَمَنْ نَازَعَنِى فِيهِمَا أَلْقَيْتُهُ فِى النَّارِ » .

ولذلك نهى عن جر الإزار : خيلاء ، وقد قيل إنه جر رداءه[2] ، جودا وكرما .

فإذا كبر العبد : استنار الكبرياء فى أرضه ، فملأ ما بين السماء والأرض .

---

(١) من الآية : ٣٧ من سورة الجاثية .

(٢) فى الأصل : إزاره .

١٦ — الخوف

وأما قوله : الخوف على كذا وجه ، فالخوف من خفوف القلب وانزعاجه من مستقره ، وذلك أن القلب مستقر حيث أقر ، فإذا أحست النفس بما يلائمها من أمر دين أو من أمر دنيا : فزعت النفس ، فوقع القلب فى ضيق المستقر ، فاشتد عليه ذلك الضيق ، فإنما قيل : خاف أى خف وانزعج قلبه عن مكانه ، والفزع هو انقبـــاض القلب ، والخوف انزعاج القلب : نفورا من الشيء الذى أحست به النفس بما لايوافقها ، فإذا وجد الوفاق من الأشياء والأمور استقر فى مكانه ، فيقال : أمن .

١ — الفزع : وإنما صار الخوف « الفزع » فى هذا المكان ، لأنه من الآدميين عند القتال ، ألا ترى أنه يقال : «خاف من ربه» ، ولايقال « فزع من ربه » ، فالفزع من الخلق ، والخوف من الله ومن الخلق ، وإنما صار هكذا ، لأن الفزع : صورته النفار ، والقلب الموحد لاينفر من الله ، إنما ينفر من عقاب الله ، ومن شر خلق الله ؛ وإنما ينفر الكافر ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا[1] ﴾ .

---

(١) من الآية : ٦٠ من سورة الفرقان .

يعلمك أنهم كانوا نافرين ، فزادهم هذا الاسم : نفورا ، وقال :

﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ[١] ﴾ .

فنسب الفزع إلى اليوم ، فالمؤمن لايفزع من الله ، ولكن يفزع من الخلق إلى الله ، فيطمئن عنده .

٢ ـ العلم : وإنما صار الخوف العلم فى مكان آخر : لأن هذه الأشياء التى ذكرناها بديا بالعلم يخاف ، ومالم يعلم لم يخف ، وإنما يخافه بالغيب من علمه ، والرجاء هو : تنحى القلب عن مستقره ، والأرجاء هو : نواحى الشيء ، وهو قوله تعالى :

﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا[٢] ﴾ .

أى : نواحيها ، حين انشقت السماء : تبنيت أقوام الملائكة ، فى نواحى السماء فى مصافها ، فإنما الرجاء : هو تنحى القلب : امتدادا وطمعاً لما أطمع من الثواب ، فمد عينيه إلى ذلك الطمع ، فذاك الفعل : رجاء . والخفوف عن مكانه صاعدا إلى أعالى الصدر : هو الخوف ، فمن صورتيهما : لزم القلب هذان الإسمان ، ولذلك ذكر الرجاء فى مواضع ، وعنى به الخوف ، فمن ذلك قوله تعالى :

---

(١) من الآية : ٨٩ من سورة النمل .
(٢) من الآية : ١٧ من سورة الحاقة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا[1] ﴾ .

أى لا يخافون لقاءنا ، وقال أيضاً :

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا[2] ﴾ .

أى لا تخافون لله عظمة ، وقال أيضاً :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا[3] ﴾ .

أى لا يخافون حسابا . فإنما جاز أن يسمى الرجاء خوفا ، والخوف رجاء : لاقتراب صفتيهما ، وتشابه صورتيهما على القلب ، هذا تنحى عن مستقره ، كالشيء الذى يتمدد : طمعاً فى تناول شيء ، وذاك : خاف وارتحل[4] عن مستقره صاعدا ، كالذى يخف : هربا من شيء .

---

(١) من الآية : ٧ من سورة يونس عليه السلام .
(٢) الآية : ١٣ من سورة نوح عليه السلام .
(٣) الآية : ٢٧ من سورة النبأ .
(٤) فى الأصل : خوف وارتحال .

١٧ – الصلاة

وأما قوله : الصلاة على كذا وجه ، فالصلاة : هى تصلية العبد بين يدى ربه ، يدعوه : افتقارا ، ومنه قوله : « صلى فلان بنار فلان » ، أى قام فقابل بجسده تلك النار ، ليصل إليه حرها ، فيتسخن بها ، ويستدفىء بها من البرد ، فقال : صلى ، على قالب افتعل ، يقال : اصطلى به ، وهو قوله تعالى :

﴿ . . . بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(١) ﴾ .

وإنما سمى الوقود : صلى ، لأنه يصطلى به ، ومنه قوله تعالى :

﴿ لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى ، الذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى(٢) ﴾ .

فإنما قوله « صلى » مثل قوله جمع ، وكذلك يقال لكل فعل مردود مكرر ، ليعلم أنه مرات ، لامرة واحدة ، فإنما صلى العبد ، أى : وقف وقابل بجسده قبالة عظمته وجلاله ، ومجده وكرمه ، وعطفه ورأفته ورحمة ، بما فى قلبه من التوحيد له ، والحب له ، والإجلال والتعظيم له ، وبذل النفس ، والانقياد ، والخوف والرجاء ؛ فقابل العبد بما فى قلبه وصدره من هذه الأشياء كلها ، التى هى حشو معرفته ربه ، وقابل بجسده

---

(١) من الآية : ٧ من سورة النمل .

(٢) الآيتان . ١٥ ، ١٦ من سورة الليل .

وجميع أركانه عظمته وإلهيته : عبودة وتذللا ، يستعطف بذلك ربه عليه ، ويستجلب رحمته وجوده وكرمه ، ويتضرع كالضرع الذى يحلب حتى يدر عليه اللبن ، فهو يتملقه كى يدر عليه من جوده وكرمه ، فوصل إليه من ربه هذه الأشياء ، كما وصل إليه من حر النار حتى صلى بها ، حتى سخن واستدفأ بها من البرد ، واستدفأ العبد بالنور الذى وصل إليه من وقوفه بين يديه من حر النار وزمهريرها .

فالصلاة دخول على الله فى مأمنه وهو كالحرم للعبد ، وإذا كبر فقد صار كهيئة المحرم ، ألا ترى أنه رفض جميع أعمال النفس من الكلام والنظر ، والمشى ، والأخذ والإعطاء ، والأكل والشرب : فإحرامه فى صلاته أكثر من إحرامه فى الحج ، فالحج : دخول فى مأمن حرمه ، والصلاة : دخول فى مأمن قربته ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ[1]﴾ .

ولذلك قال : الساجد يسجد على ظهر قدم الرحمن ، ولذلك أمر أن يتوجه إلى الكعبة ، لأنها معلم القدم ، ولذلك جاء فى الحديث الذى روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — من قوله :

---

(١) من الآية ١٩ من سورة إقرأ .

« سُبْحَانَ الذِى فى الْأَرْضِ مَوْطِئُهُ » .

فهذا صلاة العبد يقف بين يدى ربه ، يدعو ليستنير بنوره الذى أمله من القربة ، كما وقف المصطلى بالنار ليصل إليه حرها ، فيسخن بدنه ، ويستدفىء بها من البرد ، ويستجيب له دعاءه ، ويسعفه حاجته ، فإنه جوب[1] للعباد محل الحوائج ، وطرق لهم السبيل إلى دعائه ومسألته فلذلك جاز للصلاة أن تفسر فيقال هى : دعاء ، لأنه إنما وقف ليدعوه بأسمائه ، ويناجيه بمعالم الأسماء ، ويقدسه بآلائه ، ويثنى عليه بصفاته ومحاسن أفعاله التى خرجت من صفاته ، وإنما سمى « ثناء » ، لأنه فرد توحد بالأحدية ، وتفرد بالوحدانية ، وليس هاهنا صفة ، فإذا ذكره بصفاته فإنما يذكر مثانى عندنا لاعنده ، مأخوذ من الثنية ، وإنما صار عندنا مثانى لاختلاف المعانى عندنا ، أما عنده : فهو واحد المعنى ، فلذلك قيل : ثناء عليه جلال وعظمة ، وبهاء وسلطان ، وكبرياء وعزة ، وبهجة ورحمة ، فهذا منا : ثناء عليه ، وهو فرد منفرد عن هذه الأسماء ، متوحد لأنا ذكرنا صفات كالمثانى ، ولذلك يقال للثوب ثوب مثنى ، لأنهما ثوبان متظاهران ، وللثوب الواحد يقال : طاق ، لأنه لم يثن عليه ثوب ثان فيلزق به ، ولذلك يقال للرجل إذا صعد مكانا ما « تثانى على كذا وكذا » ، يريد به الارتفاع والصعود ، وإنما لزمه هذا الاسم لامن

---

(١) أى : فإنه أسرع إجابة لعباده ، وأنفذ قضاء لحوائجهم ، كما قال تعالى (ادعونى أستجب لكم) .

قبل الصعود ، ولكن من قبل أن المكان رفيع ، وقامته رفيعة ، فصارت الرفعتين مثنى ، كالشيء الذى قدثنى بشيء .

وأما صلاة الرب : فهى إقباله على عبده بالدعاء له ، وهو أن يسأل لعبده من نفسه فيقول : لتسبق رحمتى على فلان غضبى عليه » .

حدثنا سعيد بن يحي بن سعيد الأموى[1] ، قال حدثنا هوذة ابن خليفة[2] ، عن عوف ، عن الحسن : قال قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

« قالت بنوا إسرائيل لموسى : أيصلى ربك ؟ قال : اتقوا الله يابنى إسرائيل ، فأوحى الله إليه : إنما بعثتك لتبلغنى عنهم ، وتبلغهم عنى ، فماذا قالوا لك ؟ قال : قالوا : أيصلى ربك ؟ قال : فأخبرهم أنى أصلى ، وأن صلاتى : « لتسبق رحمتى غضبى » .

حدثنا سعيد قال حدثنى أبى ، قال حدثنا ابن جريج[3] عن

---

(١) سعيد بن يحي بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص الأموى ، أبو عثمان البغدادى روى عن أبيه وابن المبارك ، روى عنه البخارى والنسائى والترمذى . توفى سنة ٢٤٩ هـ .

(٢) هوذة بن خليفة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكرة الثقفى ، أبو الأشهب البصرى الأصم ، روى عن سليمان التيمى وابن جريج ، روى عنه أبو بكر بن أبى شيبة ، وعباس بن محمد ، قال ابن سعد ذهبت كتبه ولم يبق عنده إلا كتاب عوف الأعرابى . توفى سنة ٢١٥ هـ .

(٣) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموى ، روى عن ابن أبى مليكة وعكرمة مرسلا ، وعن طاووس ومجاهد ونافع ، روى عنه يحي =

عطاء[1] ، قال : لما أسرى برسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى السماء السابعة ، قال له جبريل « رويدك[2] يا محمد فإن ربك يصلى » ، قال : وما يقول يا جبريل ؟ قال : يقول : « سبوح قدوس سبقت رحمتى غضبى » . فهذه صلاته .

١ — المغفرة : وإنما صار فى مكان آخر تأويلها « المغفرة »[3] ، فإن هذا فرع من الأصل الذى ذكرناه ، بمنزلة غصن شجرة ، فمرجع هذا التأويل ، حيث قال : صلاته المغفرة راجع إلى الأصل ، إذ قلنا إن صلاته أن يسأل من نفسه لعبده ، فإذا كان العبد من ربه على بال عظيم — حتى يتولى بنفسه تبارك اسمه وتعالى الطلب والاقتضاء له من نفسه — فقد دخل فيه المغفرة والرحمة والعفو والإفضال وكل مرغوب فيه .

= ابن سعيد الأنصارى والأوزاعى والسفياتان ، وكان أعلم الناس بعطاء . مات سنة ١٥٠ هـ .

(١) هو عطاء بن أبى رباح القرشى ، أبو محمد اليمانى نزيل مكة ، أحد الأئمة الفقهاء ، روى عن عثمان وعتاب بن أسيد ، وأسامة بن زيد وعائشة وأبى هريرة ، روى عنه جرير بن حازم وابن جريج . توفى سنة ١١٤ هـ .

(٢) أى . مهلا لا تتعجل .

(٣) كما فى قوله تعالى . (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) من الآية ١٥٧ من سورة البقرة .

١٨ ـ الناس

وأما قوله « الناس » على كذا وجه ، فالناس هم الذين ولدهم آدم — عليه السلام — ، لأن واحده إنسان ، وجمعه أناس ، فثقل أن يقال : « الأناس » ، فأدغم وشدد النون فقيل « الناس » : ففي مكان عنى بالناس :

١ — النبي وحده[١] .

٢ — الملك ، وفي موضع عنى الملك وحده [٢].

٣ — الجماعة ، وفي موضع عنى الجماعة [٣].

٤ — الدجال ، وفي موضع عنى الدجال .

فكل منفرد وحده له شأن عظيم ، وأمور محيطة به ، فذاك وإن كان وحده فهو جماعة ، لكثرة خير النبي ، وكثرة عرض الملك وغناه ، وكثرة شر الدجال وفتنته .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) من الآية : ٥٤ من سورة النساء .

(٢) كما في قوله تعالى (... لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) من الآية : ٤٦ من سورة يوسف عليه السلام .

(٣) كما في قوله تعالى (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) من الآية : ٢ من سورة النصر .

١٩ - كتب

وأما قوله « كتب » ، فالكتب : تنظيم الشيء ، ومنه سميت الكتيبة في الجيش ، وإنما سمي « كتابا » : لتنظيم الحروف نقشا :

١ — فرض : وإنما صار تأويله في قوله كتب في مكان أي فرض فالغرض منظوم ، فإنما سمي فرضا ، لأنه بين أوله وآخره ، كقوله تعالى:

﴿ . . . نَصِيباً مَفْرُوضاً[١] ﴾ .

فالنصيب : الذي نصب ، والمفروض ما قطع وفصل ، وبين أوله وآخره ، فقيل فرض ، وهذا شيء مفروض أي: مفصل مبين أوله وآخره.

٢ — قضى : وإنما صار في مكان آخر كتب أي قضى[٢] ، فالقضاء اقتضاء الأمر ، وإنفاذه ، فلا يتهيأ اقتضاؤه إلا منظوما كله بعضاً ببعض من أول كل أمر إلى آخره ، وإن الأمر الواحد لايتم إلا بحركات كثيرة من البدن فيحتاج إلى نظم ينظم تلك الحركات حتى يصير فعلا منظوما.

٣ — وجب ، وإنما صار كتب أي : وجب[٣] في مكان آخر ، لأن الوجوب حلول الأمر على الصدر ، وإنما يجب ما صار نظاما .

---

(١) من الآية : ٧ من سورة النساء .

(٢) كما في قوله تعالى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) من الآية : ٥١ من سورة التوبة .

(٣) كما في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) من الآية : ١٨٣ من سورة البقرة .

٢٠ ــ الخير

وأما قوله « الخير » على كذا وجه ، فالخير : ما وقع عليه اختيار الله للعباد .

١ ــ المال : وإنما صار الخير فى هـذا المكان « المال » ، لأنه خير الدنيا و نعيمها ، وفيه قوام الدين والعيش ، فالمال مختار فى الدنيا على جميع الأشياء ، فالاختيار واقع عليه ، ولذلك سمى « خيرا »[١] .

٢ ــ الإيمان والإسلام : وإنما سمى الخير « الإسلام والإيمان فى مكان آخر : لأنه مختاره للآخرة .

٣ ــ الوفاء والإمامة : وإنما صار الخير : الوفاء والإمامة فى مكان آخر ، فذاك لاختيار الله إياه .

٤ ــ السعة والغنى : وإنما صار الخير « السعة والغنى » فى مكان آخر ، فذاك مختاره للدنيا .

٥ ــ السرور : وإنما صار الخير « السرور » فى مكان آخر : لأنه مختاره على الأشياء .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : (وما تنفقوا من خير فلانفسكم) من الآية ٢٧٢ من سورة البقرة .

٢١ — الخيانة

وأما قوله « الخيانة على كذا وجه » ، فالخيانة ضد الأمانة ، وإنما سميت خيانة : لأنه فعل فعلا فى سر ومكر ، وفى ذلك الفعل نبذ للأمانة وإنما صارت أمانة : بقبولها ليمسكها فى المأمن ، والمأمن : القلب ، فإذا نبذها فقد بطل القبول ، فالأصل هو نبذها ، لما ترك حفظها ورعايتها ولكنه إنما لزم هذا الاسم ذلك النبذ فقيل « خيانة » لأنه نبذ فى سر وخفاء .

ومنه خنين المرأة التى هى خفرة حيية شابة ؛ وإذا بكت «خنت» أى استعبرت ببكائها ؛ وكان بكاؤها فى خفاء ، ومنه قول على[1] — للحسن[2] ابنه — رضى الله عنهما — يوم صفين[3] ، حيث تكلم فبكى

---

(١) هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحد الخلفاء الأربعة الراشدين ، وأول من أسلم من الصبيان ، توفى شهيدا قتله ابن ملجم ومات سنة ٤٠ هـ .

(٢) هو الحسن بن على بن أبى طالب ، ابن على وفاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ، ولد فى السنة الثالثة من الهجرة ، توفى بالمدينة مسموما سنة سنة ٤٩ هـ .

(٣) صفين : موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات ، وفيه وقعت الحرب بين على ومعاوية سنة ٣٧ هـ ، وفيها قتل عدد كبير من الصحابة ، وكانت عدة الوقائع ٩٠ وقعة .

لايجهر به ، فقال علي : « أتخن خنين الجارية » ، فيقال في البكاء : خن في بكائه ، أي : غض من صوته وأخفاه ، ولم ينتحب ، وخان في الأمانة أي : أخفى المكر والغدر في فعله حتى صار نبذ الأمانة التي قبلها ووضعها في المأمن ، وهو قلبه .

١ — الظلم ، وإنما صار لفظ الخيانة في مكان آخر « الظلم » ، لأنه إذا ظلم الحق ، وظلم نفسه فمن نخوة الهوى ، ونخوة النفس ؛ مازج الأمانة بدنس الغدر والمكر .

٢ — نقض العهد : وإنما صار الخيانة في مكان آخر « نقض العهد » لأن في نقض العهد نبذ الأمانة ، وقد روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم : أنه قال :

« لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ » .

٣ — المعصية : وإنما صار الخيانة في مكان آخر « المعصية » : لما وصفنا بديا ، أي في كل طاعة أمانة ، وفي كل أمر لله أمانة ، فإذا ترك الأمر فقد نبذ الأمانة .

٢٢ — الإمام

وأما قوله « الإمام » على كذا وجه ، فالإمام : هو الذي يؤم الناس ويقصدونه ، فتشخص إليه القلوب : قصداً ، وتشخص إليه الأبصار عند رؤيته : نظرا ، وتنحوا إليه نفوسهم : أملا ، بالاقتداء بفعله .

فهو إمام القلوب ، وإمام الأبصار ، وإمام الأبدان : ليؤموه ، أى يقصدونه فيأتمون به . أى يقتدون بفعله ، وهو قائدهم ، يقودهم إلى ما أمامهم من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية .

١ — المعلم : وإنما صار الإمام معلما[1] فى هذا المكان : لأنهم إذا رأوه أمامهم علموا الطريق فساروا نحوه .

٢ — الداعى إلى الخير : وإنما صار الإمام فى مكان آخر « الداعى لهم إلى الخير[2] : لأنه أمام المدعوين .

٣ — اللوح المحفوظ : وإنما صار الإمام فى مكان آخر « اللوح المحفوظ »[3] : لأنه إمام الخلق فى الخلقة ، وهو أول شىء خلق مع القلم .

---

(١) كما فى قوله تعالى (فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) من الآية : ٧٩ من سورة الحجر .

(٢) كما فى قوله تعالى (واجعلنا للمتقين إماما) من الآية : ٧٤ من سورة الفرقان .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) من الآية ١٢ من سورة يس .

٢٣ ـ الأمة

وأما قوله : الأمة على كذا وجه ، فالأمة : هى الجماعة التى يؤمها الناس ويقصدونها .

١ ـ الجماعة : فإنما صارت الأمة فى هذا المكان «الجماعة»[١] : لأن الذى يقصده الناس ويبصرونه : إنما يبصرون الكثرة المجتمعة حتى يقصدونها .

٢ ـ الملة : وإنما صارت الأمة « الملة »[٢] فى مكان آخر : مثل ذلك أيضاً ، وإنما سميت ملة : لاجتماع الناس عليها ، فهى جامعة لهم ، ويقال : « ملة » ، و « لمة » ، فالملة : الأمر المجتمع عليه دنيا ، واللمة : الشعر الذى قد لفه وجمعه ، ومنه قوله : « كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لمة تضرب منكبيه » ، ومنه قوله : « اللهم إنى أسألك رحمة تلم بها شعثى » ، أى تجمع ما شعث أى : ما تفرق من أمرى .

٣ ـ أهل كل دين : وإنما صارت الأمة « أهل كل دين » فى مكان

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : (. . . ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) من الآية : ١٢٨ من سورة البقرة .

(٢) كقوله تعالى (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم) من الآية : ٤٧ من سورة يونس .

آخر لأن الدين جمع الجماعة ، فصاروا أمة ، يؤم الناس نحوهم[١] .

٤ — السنين : وإنما صارت الأمة « السنين »[٢] فى مكان آخر : لاجتماع الأيام والشهور فى سنين كثيرة .

٥ — القوم : وإنما صارت الأمة فى مكان آخر « القوم »[٣] : لأن القوم قاموا مع رئيسهم فى التسمية ، وقامت رياسته مع تسميتهم على الأفواه ، فقيل : « قوم » .

٦ — إبراهيم — عليه السلام — : وإنما صارت الأمة « إبراهيم وحده » فى مكان آخر . لأنه : قد جمع الله الخيرات له ، حتى اتخذه خليلا ، من اجتماع خصال الخيرات فيه ، وذلك : الوفاء ، والشكر ، والصبر ، والإيمان ، والإسلام ، والحنيفية ، والقنوت ، والهدى ، والاجتباء ، والأواهية ، والإنابة ، والبركة ، والاصطفاء ، والحلم . واليد ، والبصر ، والحكم ، والنبوة ، والرسالة ، والخلة ، وسلامة القلب والصديقية ، وثناء الرب عليه ، والحجة والصلاح ، والرشد ، والإحسان والإخلاص وكل ذلك مذكور فى التنزيل ، فقد قال الله تعالى :

---

(١) كما فى قوله تعالى (ونزعنا من كل أمة شهيدا) من الآية ٧٥ من سورة القصص .

(٢) وذلك قوله تعالى : (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة) من الآية ٤٥ من سورة يوسف .

(٣) كقوله تعالى : (أن تكون أمة هى أربى من أمة) من الآية ٩٢ من سورة النحل .

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ[١] ﴾ .

فشهد له بالإتمام ، ثم قال أيضاً .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى[٢] ﴾ .

فشهد له بالوفاء ، ثم قال :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٣] ﴾ .

ثم قال فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ[٤] ﴾ .

وقال فى آية أخرى :

﴿ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا[٥] ﴾ .

ثم قال :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[٦] ﴾ .

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

(٢) الآية : ٣٧ من سورة النجم

(٣) الآيتان: ١٢٠ و ١٢١ من سورة النحل .

(٤) ٧٥ من سورةهود عليه السلام .

(٥) الآية ٦٧ من سورة آل عمران .

(٦) الآية : ١١١ من سورة الصافات .

ثم قال :

﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ[١] ﴾ .

ثم قال :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ[٢] ﴾ .

ثم قال :

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[٣] ﴾ .

ثم قال :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ[٤] ﴾ .

ثم قال :

﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[٥] ﴾ .

ثم قال :

---

(١) من الآية ١١٣ من سورة الصافات .

(٢) من الآية ٥١ من سورة الأنبياء .

(٣) من الآية ١٠٥ من سورة الصافات .

(٤) من الآية ١٠٣ من سورة الصافات .

(٥) من الآيات ١٠٩ و ١١٠ و ١١١ من سورة الصافات .

﴿ أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ[١] ﴾ .

قال : القوة والبصر فى الدين ، والعون والتعلق بنا ، فإنما اليد للتعلق به ، والبصر لمشاهدة الربوبية ، ثم قال :

﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ[٢] ﴾ .

ثم قال :

﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا[٣] ﴾

ثم قال :

﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ[٤] ﴾ .

وقال أيضاً :

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا[٥] ﴾ .

ثم قال :

﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[٦] ﴾ .

---

(١) من الآية : ٤٥ من سورة ص .

(٢) من الآية : ٥٤ من سورة النساء .

(٣) من الآية : ١٢٤ من سورة البقرة

(٤) من الآية : ١٣٠ من سورة البقرة .

(٥) من الآية : ١٢٥ من سورة النساء .

(٦) من الآية ٨٤ من سورة الصافات .

وقال أيضاً :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا[1] ﴾ .

وأثنى عليه ، ثم قال :

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ[2] ﴾ .

يعنى : الثناء عليه فى الأمم ، ثم قال :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ[3] ﴾ .

فإن قال : إن إبراهيم كان أمة يعنى : جماعة وحده ، فأية جماعة بأعظم ممن جمع الله له كل هذه الخصال !

٢٤ — الشقاق

وأما قوله : الشقاق على كذا وجه : فالشقاق مأخوذ من الشق والتزايل والمفارقة والمباينة .

١ — الخلاف : فإنما صار الشقاق فى هذا المكان « الخلاف »[4] ، لأن الخلاف إذا دخل بين اثنين مؤتلفين : تزايلا وتفرقا وافترقا .

---

(١) من الآية ٤١ من سورة مريم .

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة الصافات .

(٣) من الآية ٨٣ من سورة الأنعام .

(٤) وذلك قوله تعالى : (وإن تولوا فإنما هم فى شقاق) من الآية ١٣٧ من سورة البقرة .

٢ ــ العداوة : وإنما صار الشقاق « العداوة »[1] فى مكان آخر : لأن العداوة مأخوذة من العدو ، للبغض الذى بينهما ، فقلب كل واحد منهما ينفر من صاحبه نفارا ، ويعدو : هربا منه ، وتباعدا لبغضه فتلك عداوة ، فتلك المفارقة : انشقاق ، على قالب « انفعال » ، وعلى قالب : « افتعال » اشتقاق ، وعلى قالب « فعال » شقاق ، وإنما اختلفت الألفاظ لاختلاف القوالب ، والمعنى واحد . والألفة هى : « الاجتماع » كشىء واحد ، ألا ترى أن الرجل يألف شيئاً فكأنه صار لاصقا لانضمامه إليه والتفافه .

٢٥ ــ الوجه

وأما قوله : الوجه على كذا وجه : فالوجه إنما سمى « وجها » لأن سلطان الإنسان كله فى رأسه ، وبه يقطع مسافات الجو إذا مشى فإنما هو : « وجأ » مهموز من قوله « وجأ يوجأ » وهو الدفع ، ثم قلبت الهمزة هاء ، فقيل « وجه » ، فيه يدفع هواء الجو ويقطعه ، ولذلك سمى جواً ، فالجو « الهواء » الذى فوقك وأمامك ، والهواء الذى هو تحتك وإنما جاز أن يسمى الجو هواء : لأنه هوى لمن فوقه ، وإنما سمى هوى : لأنه يهوى بكل شىء إذا تردى ذلك الشىء وسقط .

---

(١) وذلك كقوله تعالى : (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) من الآية ٢ من سورة ص .

١ — القبلة : فإنما صار الوجه فى هذا المكان « القبلة[١] » : لأنك تتوجه بوجهك قبالته .

٢ — بصائر الهدى : وإنما صار الوجه فى مكان آخر « بصائر الهدى »[٢] : لأن للنفس بصيرة ، وللفؤاد بصرا ، فجماعة البصر أبصار ، وجماعة البصيرة بصائر ، فإنما قال « بصائر الهدى » ، لأن عيون النفس إذا انفتحت ، فإنما تنفتح للشهوات ، والخواطر فى الصدر على عيون النفس ، فإذا أبصرت النفس الخواطر : هويت وتبعت مكان تلك الشهوات وطلبت ، وإذا أبصرت النفس تلك ، فجاءت الأنوار على الفؤاد ، فأشرق على عيون النفس : اهتدت تلك العيون إلى طريق الله ، أى مالت إليه ، فصارت تلك البصائر هدى ، لا شهوات ؛ وإذا لم تجىء الأنوار ، ولم تشرق على عيون النفس ، وقد أبصرت عيون النفس تلك الخواطر التى خطرت ، وتصورت صور تلك الأشياء حتى امتلأت النفس من لذة صور تلك الخواطر ووجدت النفس طعم تلك اللذة والنظرات : اهتشت النفس إلى وجودها وتناولها ، فصارت الخواطر هناك شهوة : تشتهى النفس وجودها ، وجرت اللذة فى العروق ، حتى أخذت بمجامع الجوارح ، لأن العروق ملتفة بجميع الجسد ، فإذا انتشرت اللذة فى العروق واللحم والدم ، احتاج صاحبها إلى مجاهدة

---

(١) وذلك قوله تعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله) من الآية ١١٥ من سورة البقرة .

(٢) مثل قوله تعالى : (قد جاءكم بصائر من ربكم) من الآية ١٠٤ من سورة الأنعام .

عظيمة حتى يسكنها، فالصديقون : مجاهدتهم عند الخواطر ، فإذا خطرت الخطرة : لحظوا إلى الله بوله القلوب ، فتلاشت الخاطرة ، وبقيت عيون النفس فى إشراق ذلك الوله ، فنجى من الخاطرة وسلم .

والصادقون : ليس لهم وله ، لأن الحجاب على عيون القلب منهم منسدل ولم يفتح لهم الباب ، فهم باقون مع النفس ، ليس لهم السير إلى ربهم ، ولا القربة ، ولا الوسائل ، فلما جاءت الخاطرة انفتحت عيون النفس فأبصرت صورة الخاطرة ، فأمعنت النظر حتى التذت ، وجرت اللذة فى العروق ، وليس للقلب إمكان أن يلحظ إلى الله بولهه ، فبقى فى جهد حتى يسكنها ويردها ، وإذا لم يجاهد سقط فيه ، ووقع فى المعصية .

٣ ــ العمل : وإنما صار الوجه « العمل » فى مكان آخر : لأن العمل علامة توجه القلب بوجهه إلى الله .

٤ ــ وجه الله : وإنما صار الوجه « وجه الله »[1] فى مكان آخر فإن وجه ربنا بارز لكرمه ، مكنون عن عيون الخلق ، نور السموات ونور الجنان من نور وجهه الكريم ، جاد بوجهه على عباده ، وتكرم ببهاء الوجه عليهم . ليدر عليهم من الوجه النظرة بعد النظرة ، ومن النظرة قسمة الرحمة بينهم والعطف عليهم ، ومن جماعة ما فى هذا الوجه الإقبال عليهم بمعالى وجهه ، ولطائفه وعواطف لحظاته ، وجود نظراته .

---

(١) كقوله تعالى : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) من الآية ٢٧ من سورة الرحمن .

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه » .

وما روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال فى دعائه :

« أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الكَرِيمِ ، الّذِى أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُونَ ، وَانكَشَفَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ » .

٢٦ — الفتنة

وأما قوله « الفتنة » على كذا وجه : فالفتن « الحرق » ، وهو قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذِينَ فَتَنُوا المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ﴾[١] .

أى أحرقوا المؤمنين ... وقوله أيضاً .

﴿ يَوْمَهُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ[٢] ﴾ .

أى يحرقون ، ثم يقول لهم :

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الذِى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ[٣] ﴾ .

---

(١) من الآية : ١٠ من سورة البروج .
(٢) من الآية ١٣ من سورة الذاريات .
(٣) من الآية : ١٤ من سورة الذاريات .

أى حريقكم الذى كنتم به تستعجلون .

وبدو هذه الفتنة التى فى نفوس الآدميين : أن الله تبارك اسمه ، خلق حول النار — عند باب النار — زينة وأفراحا ونعيما من النار ، فهى نار فى صورة الزينة والأفراح والنعيم ، ووضع منها فى جوف كل آدمى نصيبا ، فسميت تلك الزينة والأفراح والنعيم : شهوات ، لأن النفس لما أحست : اهتشت إليها ، فالاهتشاش والاشتهاء بمعنى واحد ، وهو قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

« حُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » .

فإنما تجد النفس لذة الأشياء فى الدنيا بتلك الحرارة الموضوعة فى جوف الآدمى التى قد حفت النار بها ، وذاك الذى بباب النار : هو نصيب العدو ، وجعلت فى الأجواف هذه النفوس مقرونة بالأرواح، وهى التى تخرج فى المنام ، وترى الرؤيا ، وتبقى الروح فى الجسد ، وهو قوله وتعالى :

﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فى مَنَامِهَا ﴾[1].

فهذه النفوس مهتشة إلى تلك الأفراح والزينة ، فتلك أفراح خلقت بلوى للعباد ، ومن هناك يدفع العدو ، فيصير به إلى جوف الآدمى حتى يهيج ما وضع فى جوفه ، ومن أجل ما أعطى العدو من ذلك : قال :

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة الزمر .

﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[(١)].

فإنما يزين للآدمى بتلك الزينة التى يدفعها من هناك ، فيمازج بها ما وضع منها فى خلقة الآدمى حتى يهتاج ما فى جوفه بما جاء به العدو حتى يغويه ، فلذلك احتاج المؤمن إلى أن يحارب ، لأن العدو إنما جاء بتلك الزينة والأفراح فزينها فى صدره ليدعوه إلى ذلك ، ويضله عن الله ، فإنما سميت « فتنة » : لأنه حريق ، وإن الخلق إذا كثرت معاصيهم ارتجت الأرض منها ، وجرى سلطان الله إلى النار ليحميها ويزيد فى حرها وحدتها ، وكانت النار نيرة ، فإنما اسودت لدخول السلطان هناك فضاعفها حدة وحرا وسودها ، فازدادت هذه الزينة والأفراح والنعيم التى بباب النار حدة وحرا بمجىء السلطان ، ثم نقلها العدو إلى أجواف الآدميين مع الزيادة التى ازدادت ، فقويت وتضاعفت ، فلذلك تكون شهوات الخلق فى وقت هيج الفتنة : أغلب ، والمعاصى أكثر ، لازدياد الحريق ، وحرارة الأجواف ، وقوة الشهوات ، ويجرى السلطان فيهيج غبار ذلك النور — نور السلطان — كهيئة غبار الجند : إذا مرت العساكر ، فيكون لمرورهم غبار ، فكذلك الغبار — غبار السلطان — وفورته . فإذا كان ذلك مطرت من ذلك الغبار على قلوب الموحدين . فتصير القلوب فى غيرة من فوران ذلك السلطان ، كأنها فى غيم ، فيتحير القلب ولا يهتدى لرشده ، ومما يحقق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) من الآية ٣٩ من سورة الحجر .

« إِذَا وَقَعَتْ الفِتْنَةُ تَحَيَّرَتْ العُقُولُ ».

فلو كان فيهم أنبياء لتحيروا ، فإذا انجلت رد إلى كل ذى عقل عقله ، فإنما تتحير الأنبياء : لأن القلوب منهم صارت فى الغبار الذى أمطر عليهم بمجيء السلطان إلى النار ليحميها ويزيد فى حرها ويحددها ، ولذلك قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

« سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِى أَقْوَامٌ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ - أى من اللين والرفق - وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ - أى لا رحمة فيها ، ولا تستحى من الفساد والخراب - وَأَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ ، فَبِي حَلَفْتُ لَأُبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ فِيهِمْ حَيْرَانًا » .

فإنما يبعث السلطان ليحدد النيران ويحميها ويسجر سخونها لمثل أهل هذه الصفة : انتقاما لحق الله ، ونصرة له ، فإذا جرى السلطان : هاج الغبار ، بمنزلة الغبار الذى يقع فى الكوة ، فترى ذلك الغبار المنبث فى ذلك النور الذى وقع فى البيت يفور وينبث ، فهو بمنزلة ذاك ، فإذا أمطر على القلوب من الغبار : تركت الحليم حيرانا ، لأن قلبه وقع فى ذلك الغبار ، شبه الغيم ، فلم ينتفع بإشراق العقل فى صدره ، بمنزلة يوم مصح ، والشمس مشرقة ، فهاج الغبار لهيج الرياح ، فانقطعت عنك منفعة إشراق الشمس أن ترى الحسن من القبيح ، وأن تميز بين الأمور وأن تهتدى لصواب الأمور وحقائق الحق ؛ فصار الحليم بهذه الصفة ،

وازداد السفيه حرارة فى شهواته، وغلبت حدته ، فإنما تقع هذه الفتنة على القلوب مطرا ، كوقوع الوباء على الطبائع والأجساد ، وإنما قيل «مطر» لأن المطر يصيب بقطره بعضا دون بعض ، فكذلك ذلك المطر ، فإذا هاجت الفتنة من الأجواف ظهرت الكبائر والدماء ونهب الأموال وهتك المحارم ؛ فهذا تفسير الفتنة ؛ ولذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(١) .

لأن حريقهما فى الجوف موجود ، وإنما هما حريقان للمال والولد، حرقة الحب والرأفة . فإن صرفت تلك الحرقة إلى رؤية ذلك من المنعم صارت تلك الحرقة : شكرا ، وإن صرفت إلى الشهوات واللذة : صار متهوما محجوبا عن الله ، فصارت فتنة .

١ — الشرك : فإنما صارت الفتنة فى هذا المكان « الشرك » : لأن الشرك أعظم المعاصى . وفى الشرك : أفراح وزينة للمشركين . قد زين لهم العدو عبادة الأوثان ، وأعطاهم من ذلك الفرح ، وقد قال تعالى :

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(٢) .

فالمشرك فرح بعبادة الأوثان فى قلبه ، لأنه يعبدها رجاء أن تشفع له إلى ربه ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

---

(١) من الآية ١٥ من سورة التغابن .
(٢) من الآية ٣٢ من سورة الروم .

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾[1] .

فحلاوة فرح الشرك فى صدره مترددة ، قد زين له الشيطان تلك الزينة التى جاء بها من النار .

٢ — الهلاك : وإنما صارت الفتنة « الهلاك »[2] فى مكان آخر : لما وصفنا .

٣ — الابتلاء : وإنما صارت الفتنة « الابتلاء »[3] فى مكان آخر : لأنه وضع هذا فى العباد ثم ابتلاهم ليستخرج سرائرهم ؛ وينظر هل يتبعون الفتنة التى هاجت منهم ، أو يفزعون إلى الله ويتعلقون به . ويستغيثون به مما هاجت فى نفوسهم بهذا الحادث الذى حدث من نقص مال ، أو مرض ، أو ذل أو خوف ، أو عارض شهوة ، فإنما يبتلى الرب عباده ليبرز حقائق إيمانهم به .

٤ — العذاب : وإنما صارت الفتنة « العذاب »[4] فى مكان آخر .

---

(١) من الآية ٣ من سورة الزمر .

(٢) كقوله تعالى : (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم) من الآية ١٤ من سورة الحديد .

(٣) كما فى قوله تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) من الآية ٥٣ من سورة الأنعام .

(٤) كقوله تعالى : (ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون) من الآية ١٤ من سورة الذاريات .

٥ ـــ القتل : وفى مكان « القتل » ،

٦ ـــ الخسران : وفى مكان « الخسران »[١] : لما قلنا بديا ، أن الله تبارك اسمه يعرض عبيده لمـا ذكرنا من هذه الأشياء ، لينظر أيرجع العبد إلى إيمانه بالله عند تلظى تلك الحرقة ، أو يهمل أمره ويعصيه ؟؟ لأن الحريق قد عمل فيه ، وأخذ بمجامع قلبه : فتلك فتنة .

٢٧ ـ العدوان

وأما قوله : « العدوان على كذا وجه » : فالعدوان مأخوذ من العدو فالعبد بين يدى ربه فى مركزه ، ومن حزبه محاربا عن حق الله لعدوه ، فيعمل عملا من المعاصى يصير به آبقا ، كما قال تعالى فى تنزيله :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾[٢].

فإنما صار آبقا لأنه ترك مركزه وتوجه إلى مركز حزب العدو ، ليقضى هناك نهمة فى شهوة ولذة ، ثم يرجع إلى مركزه .

فهذا شأن المؤمن : يقول « أقضى هذه الشهوة ، وأرجع إلى ربى تائبا » ، فهو ما دام فى المركز فهو طاهر بطهر ربه ، لأنه بين يديه ، فإذا

---

(١) كما قال تعالى (وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) من الآية ١١ من سورة الحج .

(٢) الآيتان ١٣٩ و ١٤٠ من سورة الصافات .

ترك المركز : فقد أبق وتدنس بإباقه ، فإذا رجع إلى المركز : فقد تطهر بطهر ربه ، ثم يعمل من المعاصى عملا أقبح وأشنع من ذلك ، وأعظم إثما ، فيصير هاربا من الله ، ويعمل عملا أقبح من ذلك وأعظم وزراً : فيصير عاديا . وقد قال تعالى :

﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾(١) .

لأنه أبق ، وفى الإباق هرب ، وفى الهرب عدا عدوا ، فتباعد عن ربه ، فالعدوان : غاية العدو ، لأنه على قالب « فعلان » و « فعلان » أوفر وأسبغ من « فعال » و « فاعل » ، وقد فسرنا ذلك فى تفسير قوله تعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾(٢) .

فى اسمه « الرحمن » من وفارة الرحمة ما ليس فى اسمه « الرحيم » . ألا ترى أن العباد قد يجوز لهم أن يتسموا بالرحيم ، ولا يجوز لهم أن يتسموا بالرحمن !! لوفارته وامتلائه ، فالعدوان : وفارة العدو وغايته . وقد جاء العدوان فى مكان :

١ — القتل(٣).

---

(١) من الآية ٧ من سورة المؤمنون .

(٢) من الآية ٣ من سورة الفاتحة .

(٣) كقوله تعالى : (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) من الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

وفى مكان آخر سمى العدوان .

٢ ــ الزنا : فقد سمى الله تعالى فى تنزيله الزانى « عاديا »[1].

٣ ــ الظلم : وفى موضع آخر جاء العدوان بمعنى الظلم[2].

٢٨ ــ الاعتداء

وأما قوله « الاعتداء » على كذا وجه : فالاعتداء كذلك أيضاً : اشتقاقه مما ذكرنا ، إلا أن قالب ذاك « فعلان » ، وقالب هــــذا « الافتعال » .

فالاعتداء :[3] مجاوزة الحد الذى حده الله ، فيجاوزه العبد عدوا : لا ماضيا ولا ماشيا ، ولـكن عدوا ، فذلك الاعتداء ؛ وإنما يكون الاعتداء عند تجبر النفس ، فبقوة الجبر الذى فيه تجاوز حدود الله متجبرا ، فذاك منه هرب من الله بعدو ، وبقوة التجبر يعدو : معرضا عن أمره .

٢٩ ــ الفرض

وأما قوله « الفرض » على كذا وجه : فالفرض هو الذى قد قطع وفصل ، فبان مقداره : أوله وآخره .

---

(١) كقوله تعالى : (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) من الآية ٧ من سورة المؤمنون .

(٢) كقوله تعالى : (تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان) من الآية ٨٥ من سورة البقرة .

(٣) فى الأصل : فاعتدى .

١ ــ الإلزام : وإنما صار قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾[١] .

يقول أوجب أى : ألزم نفسه بذلك المعلوم .

٢ ــ النصيب المفروض : وإنما صار فى مكان آخر « نصيبا مفروضا »[٢] أى : معلوما عدده : أوله ونهايته .

٣ ــ البيان : وإنما صار فى مكان آخر (فرضنا) أى بينا، فى قوله تعالى :

﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾[٣] .

لأنه بين حلالها وحرامها ، وصارت تلك الأشياء معلومة ، وكل شىء صار معلوما فقد صار وعاء لشىء ، فالفرائض : هى أوعية الحقوق، يتولد عنها غدا الثواب والعقاب ، وكل وعاء فهو ظرف ، فالأجساد قوالب الأعمال ، وأعمال الأجساد قوالب الحقوق .

٣٠ ــ العفو

وأما قوله « العفو على كذا وجه : فالعفو : الفضل ، يقال : عفى عنه أى : أخذ بالفضل ، ويقال أعفى لحيته : إذا أطالها .

١ ــ الفضل : وإنما صار العفو فضلا[٤] فى هذا المكان : لأنهم سألوه ماذا ينفقون ؟ فقيل لهم : مافضل عن العيال .

---

(١) من الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٧ من سورة النساء .

(٣) من الآية الأولى من سورة النور .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) من الآية ٢١٩ من سورة البقرة .

٢ — التجاوز : وإنما صار العفو فى مكان آخر « تجاوزا[١] وتركا لحقه : لأنه أخذ صاحبه بالفضل على صاحبه .

فكلما ذكر العفو فى مكان : فمرجعه إلى الفضل ، الذى يستعمل للعفو فى ذلك الأمر .

٣١ — الطهور

وأما قوله « الطهور على كذا وجه : فالطهور على قالب » فعول « أى جموع لما تفرق ، وإن لكل موحد صورة من النور ، كالصورة الظاهرة ، فلذلك صارت الأنبياء — عليهم السلام — موجودين فى كل سماء وكل أرض .

فقد روى عن ابن عباس[٢] — رضى الله عنهما — أنه قال : « فى كل أرض آدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وموسى كموسى ، وعيسى كعيسى ، ومحمد كمحمد » .

---

(١) كما فى قوله تعالى : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) من الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حبر هذه الأمة وعالمها ، أحد العبادلة الأربعة ، توفى بالطائف سنة ٦٨ هـ . تهذيب الاسماء ج ١ ص ٢٧٤ .

حدثنا بذلك : على بن حجر[١] ، قال حدثنا شريك[٢] ، عن عطاء بن السائب عن أبى الضحى[٣] ، عن ابن عباس .

فالأجساد فى اللحود مدفونة ، وأنوارهم مصورة على مثل خلقهم ، موضوعة فى كل أرض ، وفى كل سماء ، ومن هاهنا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — انه قال :

« مَرَرْتُ بِمُوسَى لَيْـــلَةَ أُسْرِىَ بِى ، فَرَأَيْتُهُ قَائِماً يُصَلِّى فِى قَبْرِهِ . . . . » .

ثم لما دخل بيت المقدس استقبله فحياه وقام خلفه فصلى ، ثم أسرى به إلى السماء فرآه فى السماء السادسة .

فهذه أنوار مصورة فيما نعلم - والله أعلم .

وإن هذه الأرضين كانت مرتوقة أرضاً واحدة ، فلما فتقها جارت إلى الله فى شأن الأحباب ، لأنهم خلقوا من الأرض ، فهى أمهم ،

---

(١) هو على بن حجر بن إياس السعدى المروزى روى عن شريك ، مات سنة ٢٤٤ هـ .

(٢) هو شريك بن عبد الله بن أبى شريك النخعى الكوفى ، روى عن ابن المبارك . توفى ١٧٧ هـ .

(٣) هو مسلم بن صبيح الهمدانى أبو الضحى العطار الكوفى ، روى عن على وابن عباس ، روى عنه منصور بن المعتمر والأعمش ، مات فى خلافة عمر ابن عبد العزيز ، وقيل سنة ١٠٠ هـ انظر الخلاصة : ص ٣٢١ .

فأعطى كل أرض منهم حظا وهى صور أنوار على مثال خلقهم، كذلك الأولياء والأصفياء لهم أنوار ، ولأنوارهم صور على مثالهم . فتكون صورهم موجودة فى الموسم[١] هناك فى الموقف ، وفى السموات والأرضين وفى البيت المعمور ، فإذا أحدث أو أجنب : تفرقت تلك الصور .

فالماء طهور : أى جامع لها ، فإنما سمى طهورا : أى : فعولا للطهر ، والطهر الجمع ، فيجتمع بالماء ما تفرق .

ومما يحقق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك :

« إِنْ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ تَزَالَ عَلَى وُضُوءٍ ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ مُتَّ شَهِيداً إِذَا كُنْتَ عَلَى وُضُوءٍ » .

وقال فى حديث آخر :

« لَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ » .

فإيمانه الوافر البالغ : يحثه على المحافظة على الوضوء ، وقد يجد الذى أحدث ـ لو اعتبر بذلك ـ كيف يضيق صدره ، وإذا توضأ كيف تطيب نفسه وإنما هو ثلاثة أشياء :

١ — غسل . ٢ — ووضوء . ٣ — وطهور .

١ — فإنما سمى « غسلا » : لأنه سيل الماء ، فكما يسيل : تسيل عنه أحداثه من السيئات والخطايا وغير ذلك ، والغسل : السيلان ، ومنه

---

(١) أى فى موسم الحج ، يؤدون الفريضة .

سمى: «غسلين»(١)، وهو ماء الغسل من لحومهم ودمائهم فى النار، أى: سال.

٢ — والوضوء: مشتق من التوضئة، يقال: «هذا رجل وضىء» أى مشرق اللون؛ فالوضاءة كالبلجة، يقال: «رجل أبلج» أى وضىء فالبلجة: البياض والوضاءة، أى ما كان لبياضه بريق، فإنما سمى الوضوء «وضوءاً» لأنه إذا غسل أطرافه وضؤ، فلذلك سمى ذلك الفعل «وضوءاً».

٣ — والطهور: الجموع لما تفرق منه؛ فإنما سمى الطهور «غسلا»: لأن الجنب قد تفرقت صورته التى وصفنا بديا بجنابته، فإذا أراد جمع المتفرق احتاج إلى أن يسيل على جميع جسده الماء الذى به يتطهر، أى: يجمع ما تفرق، والرهط من الناس جماعة تجتمع على شىء، فيقال لهم «رهطه» أى الذين ينضمون إليه، والطهر: جماعة ما تفرق منه فى حال جنابته.

٣٢ — تفسير إن

وأما قوله فى تفسير إن: فإن «إن» حرفان من حروف المعجم، ففى الألف القوة. وفى النون القوام، لأن الأصل القوة فيها، فإن طلب طالب من أين هذا؟ قيل له: هذه الحكمة العليا، وهى حكمة الحكمة، مستورة عن الخلق إلا عن أنبياء الله وأهل الصفوة من أوليائه المختصين بمشيئته: فاكتف بهذا القدر الذى بينا، فإن العلوم كلها فى حروف المعجم لأن مبتدأ العلم: أسماء الله، ومنها خرج الخلق والتدبير فى أحكام الله فى

(١) فى قوله تعالى: (فليس له اليوم هاهنا حميم، ولا طعام إلا من غسلين) الآيتان ٣٥، ٣٦ من سورة الحاقة.

حلاله وحرامه ، والأسماء من الحروف ظهرت ، وإلى الحروف رجعت فهذا مخزون من العلم ، لا يعقله إلا أولياؤه الذين عقولهم عن الله عقلت ، وقلوبهم بالله تعلقت ، فولهت فى ألوهيته ، فهناك كشف الغطاء عن هذه الحروف ، وعن الصفات — صفات الذات . فقوله « إن » إنما هو ألف ونون مخففة ، فالألف عماد ، والنون قوام ، فربما احتاج أمر إلى قائمتين فزيد نونا أخرى ، فاندغمت إحداهما فى الأخرى ، فاشتدتا ، فقيل « إن مشددة » ، وربما استغنى بإحداهما عن الأخرى ، كقوله « إن » مخففة ، فما كانت مشددة فمن قوتها عملت فى الأسماء فنصبتها ؛ وما كانت مخففة لم تعمل فى الأسماء وحلت محل « ما » كقوله تعالى :

﴿ إِنْ الْـكَافِرُونَ إِلاّ فِى غُرُورٍ ﴾[1] .

يقول : ما الكافرون إلا فى غرور ، وإذا اشتدت بأن صارت نونين نصبت الاسم ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[2] .

٣٣ — تفسير أنى

وأما قوله : أنى : فإنها تقع على الصفات على كيف[3] ، ومن

---

(١) من الآية : ٢٠ من سورة الملك .

(٢) من الآية : ٦٧ من سورة التوبة .

(٣) كقوله تعالى : (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) من الآية : ٢٥٦ من سورة البقرة .

أين[١] ، ومن القائم كالاستفهام .

٣٤ ـ الظن

وأما قوله « الظن » على كذا وجه : فالظن : هو الشيء الذى يترائى للقلب فيحسب أنه هكذا ، والتهمة مقرونة به لا يقين هناك ، فإذا غلب على القلب حسن الظن صار علما ، وإذا لم يغلب فهى محسبة مع التهمة .

١ ـ العلم : وإنما صار ها هنا الظن « علما » فى هذا المكان حيث يقول :

﴿ وَظَنَّ دَاوُدَ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾[٢] .

أى علم ، لأن الملائكة دخلت عليه المحراب بتلك الخصومة ، فضربت له المثل ، حيث قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ هٰذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾[٣] .

فمن ذلك المثل المضروب ترائى له سوء فعله ، فصار ما ترائى له « ظنا » .

٢ ـ الظن : وإنما صار الظن ظنا فى مكان آخر لأنه لم يكن مع يقين ، ولا انكشف له علم ذلك عن الغطاء ، فلذلك قال تعالى :

---

(١) كما فى قوله تعالى : (أنى لك هذا قالت هو من عند الله) من الآية ٣٧ من سورة آل عمران

(٢) من الآية ٢٤ من سورة ص (٣) من الآية ٢٣ من سورة ص

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾[١] .

٣ — المتهم : وإنما صار فى مكان آخر الظنين[٢] « المتهم » لما قلنا بديا : أن التهمة مقرونة بالحسبة ، فذلك الظن مع التهمة .

٣٥ ـ الحكمة

وأما قوله « الحكمة » على كذا وجه : فالحكمة باطن العلم ، فالظاهر : للعلماء بأمر الله . والباطن : للعلماء بالله والعلماء بتدبير الله ، فالعلماء بأمر الله : هم عمال الله ، والعلماء بالله وبتدبير الله : هم قواد الله ، يقودون العساكر إلى الله ، بأيديهم ألوية المقربين ، وأعلام الأمراء ؛ فهم أولوا الأمر ، الذين أمر الله بطاعتهم فقال :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[٣] .

فروى عن جابر بن عبد الله[٤] أنه قال : « هم العلماء » ، فالعلماء بالله قد بانوا بونا بعيدا من العلماء بأمور الله ، فالعلماء بأمور الله : هم جهال بالله وبحكمته ، ولذلك قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

---

(١) من الآية : ٣٢ من سورة الجاثية .
(٢) كقول تعالى : (وماهو على الغيب بظنين) الآية ٢٤ من سورة التكوير .
(٣) من الآية : ٥٩ من سورة النساء .
(٤) هو جابر بن عبد الله ، الصحابى ابن الصحابى ، شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة ، توفى بالمدينة سنة ٧٣ هـ .

« مَا مِنْ آيَةٍ إلاَّ وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ تَحَاجُّ الْعِبَادَ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ ».

١ — الفقه : وإنما صارت الحكمة « الفقه » فى هذا المكان : لأن الذى يفقه عن الله صفاته وتدبيره هو العالم بالله .

٢ — العلم : وإنما صارت الحكمة « العلم »[١] فى مكان آخر : فمعناه هذا العلم الذى ذكرنا .

٣ — النبوة : وإنما صارت الحكمة « النبوة[٢] » فى مكان آخر : لأن النبوة نباهة عن الحكمة ويقظة .

٤ — القضاء بين الخلق : وإنما صارت الحكمة « القضاء بين الخلق[٣] » فى مكان آخر : لأن القضاء لايهتدى له إلا بالحكمة ، لأن الحكمة من العدل رفعت .

---

(١) كقوله تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء) : من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٢) كقوله تعالى : (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة) من الآية : ٥٤ من سورة النساء .

(٣) كقوله تعالى : (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) من الآية ٢٠ من سورة ص .

٣٦ — المعروف

وأما قوله « المعروف » على كذا وجه : فالمعروف ما عرف في أخلاق الله التي قال عنها :

« إنَّ لِلَّهِ مِائَةً وَسَبْعَةَ عَشَرَ خُلُقاً » .

١ — إتباع «محمد» عليه السلام : وإنما صار المعروف في هذا المكان تأويله : « إتباع محمد » صلى الله عليه وسلم : لأن محمد اجاء بالمعروف.

٢ — القرض : وإنما صار المعروف «القرض»[1] في مكان آخر : لأن ذلك معدود في محاسن الأخلاق ومعروف .

٣ — حسنة : وإنما صار المعروف « حسنة » في مكان آخر : لأن ذلك من تطييب نفس المؤمن .

٣٧ ـ الطاغوت

وأما قوله « الطاغوت » على كذا وجه : فالطاغوت مشتق من الطغيان ، أخرجه على قالب « فاعول » ، وهو المجاوزة ، فإذا قوى الشيء ، ووفرت نفسه : كان على قالب « فاعول » :

---

(١) كقوله تعالى : (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف) من الآية ١١٤ من سورة النساء .

١ — الشيطان : فلذلك صار تأويله « الشيطان[١] » .

٢ — الكاهن : وفى مكان آخر « الكاهن[٢] » .

٣ — كعب بن الأشرف : وفى مكان آخر « كعب بن الأشرف[٣] اليهودى » .

٣٨ - الظالمون

وأما قوله « الظالمين » على كذا وجه : فالظلم مشتق من الظلمة ، لأنه فى نفسه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ويورث القلب والصدر ظلمة ، ويؤدى إلى الوجه ظلمة ، ويصير فى القبر ظلمة ، وعلى الصراط ظلمة إلى سجن الظلمة . فالعدل نور ، فإذا أعرض عنه جار فقد وقع فى ظلمة .

فانقسم هذا الاسم على كل معصية ، فالشرك ظلم — ظلم حقه حيث نسب بعض ملكه إلى من لا يملك شيئاً — ، والمعصية ظلم — ظلم نفسه

---

(١) كقوله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله) من الآية : ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٢) كقوله تعالى : (وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) من الآية : ٦٠ من سورة المائدة .

(٣) كقوله تعالى : (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) من الآية : ٦٠ من سورة النساء .

لأن الله خلقه وجعل له حظاً فتولى وأعرض عن حظه ، فحرم نفسه حظه .

٣٩ — اطمأن

وأما قوله « اطمأن » على كذا وجه ، فقوله اطمأن من الطمو ، يقال « طم على الشيء » إذا غطاه وقهره حتى سكن وذل ، وطمى الماء إذا علا موجه وتياره وغلب على المياه حوله ، فالنون من قوله : « اطمأن » زائدة فى الكلمة لتقوية الكلمة ، وكل شيء صيرت له قائمة ، فقد قويته وصيرت له قرارا ، ومن أجل ذلك سمى الحوت الذى عليه قرار الأرض[١] « نونا » .

١ — السكينة ، فإنما صار اطمأن فى هذا المكان « السكينة »[٢] ، لأنه غطاه وسكنه .

---

(١) لا شك أن هذه إحدى النظريات الخرافية التى تلقاها القدامى بلا تمحيص ، وتناقلوها بما فيها من أخطاء ، وقد ثبت أن الأرض تسبح فى الفضاء الكونى ، وإن عصر الفضاء الذى نعيشه الآن والتجارب المثيرة من خروج الإنسان عن نطاق الجاذبية الأرضية ، وصعوده إلى القمر والنزول على سطحه ، كل ذلك دليل صدق وشاهد حق على أن الأرض لا تستقر على حوت أو سمكة أو ما شابه ذلك .

(٢) كقوله تعالى : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) من الاية ٤ من سورة الفتح .

٢ ــ الخبت . وإنما صار الاطمئنان فى مكان آخر « الخبت » لأن الخبت . ما تطامن من الأرض ، أى . اتضع وانهبط ، ومنه قوله تعالى :

﴿ . . . الْمُخْبِتِينَ ﴾[1] .

فالمخبت المطمئن إلى ربه وقلبه متطامن ، أى منحدر ليستقر فيه الشيء

٤٠ ــ السعى

وأما قوله « السعى » على كذا وجه : فالسعى سرعة المشى بالأقدام وربما وقع هذا السعى على سير القلب إلى الله ، وربما وقع على سير الأبدان .

١ ــ العمل : فإنما صار السعى « عملا » فى هذا المكان : لأنه سعى بقلبه إلى الله ، وكذلك السعى إلى الجمعة هو سعى القلب[2] .

٢ ــ السعى بالأقدام : وفى مكان آخر « السعى بالأقدام » : وهو قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى ﴾[3] .

---

(١) من الآية : ٣٤ من سورة الحج .
(٢) كقوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) من الآية ٩ من سورة الجمعة .
(٣) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة عبس .

وهو ذلك الأعمى(١) الذى جاء يتسكه(٢) الجدر ، حتى أتى مجلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — مقبل على بعض رؤساء قريش يرجو بذلك إسلامه ، فجاء الأعمى ليسأله عن شىء ، فعبس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وجهه ، وأعرض عنه ، مقبلا على ذلك الكافر ، فنزل قوله تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾(٣) .

فعوتب على ذلك .

فهذا السعى الذى ذكر : منه هو سعى القلب مع سعى الأقدام ، ألا ترى أنه أثنى عليه بالخشية ، فقال :

﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾(٤) .

فشهد الله له بالخشية .

---

(١) هو عبد الله أو عمرو بن قيس بن زائدة . مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد فتح القادسية ومات بها شهيدا واستخلفه الرسول على المدينة فى ثلاث عشرة غزوة .

(٢) أى : يتحسسها .

(٣) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة عبس .

(٤) الآية : ٩ من سورة عبس .

٢ — السعى بالقدم : وإنما صار فى مكان آخر « السعى بالقدم » وهو قوله تعالى :

﴿ وَجاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾[١] .

فهذا سعى الأقدام ، وأيضا قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾[٢] .

أى تمشى ظاهرا وباطنا ، كالذى يسعى بقلبه وبدنه ظاهرا وباطنا ، لأن تلك الحية كانت آية من آيات الله ، فاستوى الظاهر بالباطن فى السعى ، وليس كالآدمى الذى يسعى على قدميه ، وقلبه سائر وليس بساع وإذا استوى الظاهر بالباطن من الآدمى فهو ساع بقلبه وبدنه .

٤١ ـ الفواحش

وأما قوله « الفواحش » على كذا وجه : فالفاحشة : كل فعل ستره الله فى الحلال ، وأمر بستره ، ففى الحرام تلك فاحشة . مثل « الزنا[٣] » وما ضارعه مما يستحيا منه حتى كنى عن ذكره ، وأمر بستر فعله ، فإذا عمله من حيث لم يطلق له ، فهى فاحشة .

---

(١) من الآية : ٢٠ من سورة يس .

(٢) من الآية : ٢٠ من سورة طه .

(٣) كقوله تعالى : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) الآية : ٣٢ من سورة الإسراء .

٤٢ ـ أدنى

وأما قوله : « أدنى » على كذا وجه : فأدنى معه الدنو والقرب[١] ووجه آخر : كقوله الدنى[٢] . والدنى مأخوذ من الدون والوضيع من الأشياء ، فكلاهما يؤديان إلى معنى واحد ، لأن الدون : ما قرب منك ، وما علا وارتفع : فقد تباعد منك .

٤٣ ـ التأويل

وأما قوله : « التأويل » على كذا وجه : فالتأويل تفعيل ، يقال فى اللغة : تأول يتأول تأويلا ، أى طلب أوله ، فمن عرف أول الأمور ، وأول الأفعال : فقد أدرك التأويل وناله ، وأوائل الأمور إنما توجد فى علم البدء الذى أظهره الله يوم المقادير ، وخلق الخلق فى ظلمة .

فالذين يعرفون أوائل الأمور : هم الذين يدركون التأويلات ، أى يدركون أوائل الأشياء بفضل نوره .

١ ــ التفسير : وإنما صار التأويل فى هذا المكان « التفسير »[٣] :

---

(١) كقوله تعالى : (ذلكم أقسط عندالله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا) من الآية : ٢٨٢ من سورة البقرة .

(٢) كقوله تعالى : (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) من الآية : ٦١ من سورة البقرة .

(٣) كقوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله) من الآية: ٧ من سورة آل عمران.

لأن الفسر هو انكشاف الغطاء، عن باطن القرآن، ومنه اشتق التسفر لأنه يسفر به .

٢ — تعبير الرؤيا : وإنما صار التأويل « تعبير الرؤيا[١] » في مكان آخر : لأن التعبير قريب من التفسير ، وذلك أن الرؤيا أمثال ، يحتاج المعبر أن يعتبر ، أى يتجاوز الأمثال إلى أمر الله الذى ضرب أمثاله تشبيها لذلك الأمر ، فذاك أول الأمر ، والثانى المثل المضروب ، فيصير المعبر إلى أوله ؛ وأوله : ما قدر الله فى اللوح .

٣ — العاقبة : وإنما صار التأويل « العاقبة[٢] » : لأن العاقبة مضمنة تأويل الأمر .

٤ — المرجع : وإنما صار فى المكان الآخر التأويل « المرجع[٣] » لأن المرجع هو أول الأمر الذى منه بدأ ، وإليه المرجع .

٥ — الحقيقة : وإنما صار التأويل « الحقيقة » فى مكان آخر : لأن أول الأمر بالحق ، وحقيقته آخره ، فأوله معلق بآخره ، وآخره مضمر

---

(١) كما جاء فى قوله تعالى (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) من الآية : ٤٤ من سورة يوسف ، وأيضا قوله (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) من الآية : ١٠٠ من نفس السورة .

(٢) كقوله تعالى : (وإلى الله عاقبة الأمور) من الآية : ٢٢ من سورة لقمان .

(٣) كقوله تعالى : (إلى الله مرجعكم جميعا) من الآية : ١٠٥ من سورة المائدة .

فى أوله ، لأن فاعلهما واحد ـ تبارك اسمه ـ ، يقال فى اللغة « آل يؤول أولا » ، يعنى : رجع يرجع رجعاً ، هذا على قالب فعل ، فإذا قلت على قالب « تفعل » قلت : تأول تأولا ، وإن شئت قلت : تأويلا ، لأن هذه الأشياء قد جرت على هذا السبيل من قوله : تفعل يتفعل تفعلا وإن شئت قلت تفعيلا .

٤٤ ـ الاستغفار

وأما قوله « الاستغفار » على كذا وجه : فالمغفرة « الغطاء » والمغفرة حجاب الرأفة بين يدى الله لعباده ، فإذا أذنب فقد خرج من ستر الله وعرى ، فأمر أن يقول « اغفر لى » ، أى غط ذنبى هذا بتلك الرأفة التى جعلتها حجابا لى بين يديك ، ليكون حجاب الرأفة بينى وبين عظمتك ، فهذا حجاب من الرأفة ، كالصيانة للعظمة ورحمة على العبد .

فتلك الرأفة تحجب ذنوب العبد عن عظمته ، فإذا سأل العبد مغفرة أى : غطاء غطاه بتلك الرأفة ، فلم يعذبه على ذلك ، ولذلك سمى المغفر مغفرا ، لأنه يغطى به رأسه ، ويقال : اغفر هذا الإناء أى غطه ، فأمرت بالاستغفار للذنوب ، ليغطيها برأفته التى جعلها حجابا بين يدى عظمته ، لتكون الذنوب من وراء الحجاب دون حجاب العظمة .

١ ـ الصلاة : وإنما صارت المغفرة فى هذا المكان « الصلاة » : فقال تعالى :

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1] .

أى يصلون ، لأن فى الصلاة سؤال المغفرة ، وعامة أقوال الصلاة وأفعالها تعرض للرأفة التى وضعت له ، لأن تلك الصلاة : تكبير ، وثناء وقراءة ، وحضور ، وركوع ، وسجود ، وجلسة ملق ورغبة ، فهذا كله تعرض للرأفة والرحمة ، ولذلك جاز أن تسمى الصلاة « مغفرة » ، لأنها ستر العبد ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[2] .

فصير الحسنات ستر العبد من السيئات .

٢ — العفو : وإنما صار قوله تعالى :

﴿ وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ ﴾[3] .

أى استعفى لذنبك ، فلا نعاقبك ، فقد دخل العفو فى المغفرة ، لأنه إذا ستر فقد عفى .

---

(١) من الآية : ١٨ من سورة الذاريات .
(٢) من الآية : ١١٤ من سورة هود عليه السلام .
(٣) من الآية : ٢٩ من سورة يوسف عليه السلام .

٤٥ — الدين

وأما قوله « الدين » على كذا وجه : فالدين هو الخضوع ، يقال : دان له أى خضع له ، مشتق من الدون ، وكل شيء دون شيء : فهو له خاضع ، فخلق الآدمي والكبر فيه وراثة من صلابة الأرض وقوتها ، واقتضاهم أى يدينوا له ، أى يخضعوا له ، ويخشعوا لعظمته .

فالخضوع والخشوع مبتدأ من القلب إلى الأركان ، حتى يظهر على الأركان بالائتمار بأمره ، والتناهى عن نهيه ، والقبول لأحكامه ، والانقياد له .

١ — شهادة ألا إله إلا الله : وإنما صار الدين فى هذا المكان «شهادة ألا إله إلا الله »[1] : لأن الموحد لايشهد بهذه الشهادة إلا بعد خضوعه لله . وسقوطه بين يديه : تذللا وتسليما لرقبته .

٢ — الحساب : وإنما صار الدين « الحساب »[2] فى مكان آخر : لأنه إذا جاء الحساب دان العبد ، فلم يقدر أن يجحد ، فإن جحد نطقت الجوارح ، فالحساب من الله مطالبته ما وجب له على العبد فيما عهد إليه ، وفيما قلده ، وفيما ضمن العبد ، فيطالبه بالوفاء لذلك ، فهذا الحساب ، فذاك كله خضوع يحل بالعبد .

---

(١) كقوله تعالى : (أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم) من الآية ٤٠ من سورة يوسف .

(٢) كقوله تعالى : (مالك يوم الدين) من الآية ٤ من سورة الفاتحة .

٣ ـــ حكم الله وقضاؤه : وإنما صار الدين حكم الله وقضاؤه :[١] » فى مكان آخر : لأنه إذا حل بالعبد حكمه وقضاؤه : دان العبد له .

٤ ـــ حكم الملك الذى حبس يوسف عليه السلام : وإنما صار الدين حكم[٢] الملك الذى حبس يوسف ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لما وصفنا أن الدين الخضوع عند الحكم .

٥ ـــ الإخلاص والإسلام والإيمان : وإنما صار الدين«الإخلاص والإسلام[٣] والإيمان : » فإنما أسلم المسلم ، لأنه خضع لله ، فسلم نفسه إليه عبودة ، وإنما أشرك المشرك ، خضوعا لله وللوثن ، ليقربه الوثن إلى الله زلفى لذلك وصف الله فى تنزيله عز شأنه فقال :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾[٤] .

فإنما سمى شرك المشرك وكفره دينا لأنه اتخذ إلها من دونه ، فخضع له ، فقال :

---

(١) وهو قوله تعالى : (وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين) الآية ٢٠ من سورة الصافات .

(٢) كقوله تعالى : (ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك) من الآية ٧٦ من من سورة يوسف .

(٣) كما فى قوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) من الآية ١٩ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية : ٣ من سورة الزمر .

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[١] .

أى لكم خضوعكم لمن خضعتم له . ولى خضوعى لمن خضعت له .

٤٦ ــ أحس

وأما قوله «أحس» على كذا وجه : فالإحساس هو علم النفس ، وهو وجود النفس خبر الأشياء ، وإنما سميت الحواس الخمس حواسا ، لأنهن يجلبن الخبر إلى النفس .

١ ــ عرف : وإنما صار أحس فى هذا المكان يعنى «عرف» :[٢] لأن النفس عرفت ما عاينت ، ولم يكن للنفس مجاوزة ، ووجود السبيل إلى ما يجد القلب ، ومعرفة القلب يقين ، ومعرفة النفس الحس ، لأن القلب ذو عينين يبصر بهما ، والنفس بصيرتها فى ظلمة ودخان وحجب ، فالحواس الخمس وهن : العينان اللتان فى الرأس ، والأذنان ، والأنف ، والمذاق وهو القبوة به يجد طعم الأشياء ، واليدان[٣] .

فهذه الخمس تؤدى أخبار كل شىء من الألوان ، وكل شىء من

---

(١) الآية ٦ من سورة الكافرون .

(٢) كقوله تعالى : (فلما أحس عيسى منهم الكفر) من الآية ٥٢ من سورة آل عمران .

(٣) فى الأصل بإسقاط « اليدان » .

الأصوات ، وكل شيء يلمس ، وكل شيء يبصر ، وكل شيء يذاق ، وكل شيء يشم : إلى النفس ، فتحس النفس بذلك .

٢ — رأى : وإنما صار أحس بمعنى « رأى »[١] فى مكان آخر : فهذا قريب من ذلك ، لأن هذه رؤية النفس .

٣ — تخبر : وإنما صار قوله « تحسسوا »[٢] : أى تخبروا واطلبوا الخفى من خبر يوسف ـ عليه السلام ـ فإن الحس هو خفى لطيف .

٤٧ ـ الاسلام

وأما قوله « الإسلام » على كذا وجه : فالإسلام مشتق من التسليم ، فالعبد إذا جاءه نور الهداية : عرف ربه ، واطمأن إليه ، وسكنت نفسه ، واستقر قلبه بالمعرفة الواردة على قلبه ، فانقاد له بأن يأتمر بكل ما يأمره به ، فذاك من العبد تسليم النفس إلى ربه عبودة .

١ — الإيمان : وإنما سمى « مؤمنا » لاستسلام قلبه ، وطمأنينة نفسه فالإيمان والإسلام من العبد فى عقد واحد ، لما عرفه استقر قلبه ، واطمأنت نفسه ، فلزمه اسم الإيمان لطمأنينته ، وسلم نفسه لله عبودة

---

(١) وذلك قوله تعالى : (هل تحس منهم من أحد) من الآية : ٩٨ من سورة مريم .

(٢) كقوله تعالى : (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) من الآية ٨٧ من سورة يوسف عليه السلام

بكل ما يأمر فلزمه اسم الإسلام ، فهذان اسمان لزماه بهذا العقد الواحد الذى اعتقده بقلبه ، ثم اقتضى الوفاء بهذا الإيمان والإسلام إلى يوم يموت فإن وفى : دخل الجنة بغير حساب ، وإن وفى ببعض وضيع بعضا : بقى فى الموقف للحساب ؛ فإنما وقع الحساب على الموحدين لهذا ، والعبد من ربه بين أمرين :

(ا) بين أمر حكم الله عليه به مثل : العز والذل ، والغنى والفقر ، والحب والكره ؛ فاقتضى له الوفاء بأن يطمئن إلى حكمه كما اطمأن إليه فيرضى بما حكم ، فإن جزع : حوسب ، وإن رضى : أكرم وأثيب على وفائه .

(ب) وبين أمر أمره أن يفعله مثل الفرائض ، واجتناب المحارم ، فإذا وفى بهذا فهو مسلم » لأنه قد سلم نفسه إليه عند كل أمر ونهى ، وما ضيع منه فالحساب لازم ، وهو موقوف بين عفو أو عقوبة .

٢ — الإخلاص : وإنما صار الإسلام « الإخلاص » فى مكان آخر : لأنه إذا أخلص بقلبه التسليم : فقد لزمه هذا الاسم ، وإنما صار إخلاصاً : لأن المشرك لم يخلص ، وصار المشرك مسلما نفسه إلى الله مرة ، وإلى والوثن مرة ، فلم يكن تسليمه خالصاً ، وتسليم المسلم خالص لا شوب فيه ، فالمشرك ذو علاقة ، علق قلبه بالله ، وعلق قلبه بالوثن ، فهذا كشرك الصياد ، يقع فيه الطير فيتعلق ببعض حبائله ، فهو يطير ويمد شركه الذى قد تعلق به إلى الأرض ، فكذلك المشرك : قلبه يطير إلى ربه بمعرفة الفطرة ، ويمده حب الوثن إلى الوثن ، والمؤمن خلصه الله بما من

عليه من نور التوحيد ، وفى نور التوحيد حبه ، ومن عليه بالعقل ، وخلق العقل من نور البهاء ، ليزين الأشياء الحسنة فى صدره ، فلما وافاه العقل من الله ، ووافاه نور التوحيد وحشوه المحبة لله : انقطعت حبالة الشرك ، فطار قلبه إلى الله ، فصار له خالصا ، أى قد تخلص من الحبالة ، كما تخلص هذا الطير من حبالة الصيد ، وذلك قوله تعالى :

﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ﴾[1] .

ثم قال :

﴿ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ ﴾[1] .

فإنما حبب بالمحبة ، وزينه بالعقل ، وبالكراهة : ذهبت الشهوة التى كان يجدها من عبادة الوثن ، فالحب كرهها إليه .

٣ — الإقرار : وإنما صار الإسلام « الإقرار » فى مكان آخر : لأن هذا أظهر الإسلام بلسانه ، فقيل : أسلم ، أى بلسانه .

٤٨ – الايمان

وأما قوله « الإيمان » على كذا وجه : فقد دخل تفسيره فى الباب الأول .

---

(١) من الآية ٧ من سورة الحجرات .

(٢) نفس الآية السابقة .

١ — التصديق : فإنما صار الإيمان فى هذا المكان « التصديق »[١] : لأن التصديق فعل القلب ، فإنما يصدق العبد بعد الطمأنينة والاستقرار ، فذاك التصديق منه تحقيق الاستقرار والطمأنينة .

٢ — التوحيد : وإنما صار الإيمان « التوحيد » فى مكان آخر : لأنه إنما يوحد القلب إذا اطمأن .

٤٩ — الشكر

وأما قوله « الشكر » على كذا وجه : فالشكر انفتاح عين الفؤاد لرؤية الأشياء ، يقال فى اللغة « كشر عن أسنانه » إذا انفتح فوه حتى بدت أسنانه ، وكشر وشكر بمعنى واحد ، وهو الانكشاف والانفتاح إلا أن هذا مستعمل فى نوع ، وذاك فى نوع ، وقوله تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾[٢] .

فإنما بدأ بالشكر قبل الإيمان : لأن عينى الفؤاد من المؤمن إذا جاءته الهداية من ربه ، وجاءه نور الحياة ، فحيي القلب بالله : انفتحت عينا الفؤاد ، واستنار بالنور الذى أشرق له القلب ، وأبصر القلب ، فاطمأن

---

(١) كقوله تعالى : (وما أنت بمؤمن لنا) من الآية ١٧ من سورة يوسف عليه السلام .

(٢) من الآية ١٤٧ من سورة النساء .

إلى ربه ، والكافر أعمى ، لأنه ميت الفؤاد ، وعينا قلبه منضمتان ، وهو قوله تعالى :

﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾[١] .

فإنما أحياه بنور الحياة حتى انفتحت العينان ، وأبصر النور المجعول له ، وهو نور الهداية ، فهو شاكر مؤمن ، فبالانفتاح سمى « شاكرا » ، وبالطمأنينة سمى : « مؤمنا » .

٥٠ — الفضل

وأما قوله «الفضل»[٢] على كذا وجه : فالفضل ما كان قبل القسمة ، وذلك أن الله خلق الخلق فى ظلمة قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، فقدر المقادير وقسم الحظوظ ، فمن كانت له مشيئة قبل المقادير فإنما ناله ذلك من الفضل الذى أبرزه لأحبابه وأوليائه قبل القسمة والتقدير ، وعدل بينهم فى القسمة يوم المقادير وسوى الحظوظ ثم أعطاهم من فضله هذه الزيادات التى نراها فى الدين والدنيا .

---

(١) من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .

(٢) كما فى قوله تعالى : (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) من الآية: ٧٣ من سورة آل عمران .

٥١ — الصر

وأما قوله « الصر » على كذا وجه : فالصر ما اجتمع فجمد ، مأخوذ من الصرة ، فالبرد يجمع المتفرق والجارى فيجمده .

١ — البرد : فإنما صار فى هذا المكان الصر « البرد »[١] لما ذكرنا .

٢ — الإقامة : وإنما صار الصر « الإقامة »[٢] فى مكان آخر فيكون مصرا : لأنه إذا قام على أمر فلم يبرح مصرا عليه . فقد صيره كالصرة ، وكالجمد .

٣ — السكوت : وإنما صار الصر « السكوت » : لأن الساكت كالجامد ، لأنه أصر على الكلام المجتمع فى صدره فلا يبثه .

٥٢ — البأساء والضراء

وأما قوله « البأساء والضراء » على كذا وجه : فالبأساء من البؤس والضراء من الضرر ، والبؤس : اليبس وافتقار النعمة ، والضراء : النقص فهذه صفة تدخل فى الأفعال .

---

(١) كقوله تعالى : (كمثل ريح فيها صر) من الآية ١١٧ من سورة آل عمران .

(٢) مثل قوله تعالى : (ولم يصروا على ما فعلوا) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .

١ — الفقر : فلذلك صار فى مكان تأويله « الفقر »[١] .
٢ — المرض : وفى مكان تأويله « المرض »[٢].
٣ — البلاء : وفى مكان تأويله « البلاء » .
٤ — الخوف : وفى مكان « الخوف » .

لأن هذا كله كائن فى الأحوال كلها ، وهو فى الأصل : افتقاد النعمة ، فالنعمة اسم جامع لكل ما وافق الجسد : دينا ودنيا ، والبؤس : ضده ، وهو كل ما لا يوافق الجسد ، وكذلك النفع فهو ضد الضر .

٥٣ — الوكيل

وأما قوله « الوكيل » على كذا وجه : فالوكيل هو الذى يتوكل لك ويتولاك ويكفيك مؤنك ويتكفل لك ، فإنما صار وكيلا : لأنه ولى ذلك منك .

١ — الكفيل : وإنما صار الوكيل « كفيلا » : لأنه رفعه وتضمنه ليكفيه ، فكل أمر تولاه لك غيرك ، ورفع مؤونته عنك : فقد توكل لك وكفلك ، وإنما صار الوكيل فى هذا المكان كفيلا : لأنه رفع عنك مؤونته .

---

(١) كقوله تعالى : (والصابرين فى البأساء والضراء) من الآية ١٧٧ من سورة البقرة .
(٢) كقوله تعالى (مستهم البأساء والضراء) من الآية: ٢١٤ من سورة البقرة .

٢ — الثقة : وإنما صار الوكيل « الثقة » فى مكان آخر : لأنك وثقت به ، مأخوذ من الوثاق ، صار قلبك فى وثاق الأمن والطمأنينة .

٥٤ — المحصنات

وأما قوله « المحصنات » على كذا وجه : فالمحصنة هى التى دخلت فى حصن العفة ، وحصن العفة : وجود النكاح(١) ، وإذا دخل الرجل الحصن : استقر ، فكذلك إذا وجد النكاح ، وقضى الشهوة : استقر ، فصار فى حصن العفة .

٥٥ — الشهيد

وأما قوله « الشهيد » على كذا وجه : فالشهيد هو الذى شهد المكان وحضره ، وإنما افترق هذا الاسم على افتراق الأحوال :

١ — الرسول : وإنما صار الشهيد فى مكان « الرسول »(٢) : لأنه شهد بقوله موضع الوحى من العرش ، وشاهد بقلبه أمر الملكوت ، وشهد على الأمة بالقبول يوم القيامة .

٢ — الشاهد : وإنما صار الشهيد « الشاهد بالأشياء »(٣) فى مكان

---

(١) كقوله تعالى : (والمحصنات من النساء) من الآية ٢٤ من سورة النساء

(٢) كقوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) من الآية ٤١ من سورة النساء .

(٣) كقوله تعالى : (ولا يضار كاتب ولا شهيد) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

آخر : لأنه نطق بلسانه ، وأشهد جميع جوارحه ما نطق به لسانه ، أى أحضرهم ، كأنه حين نطق إنما نطق عن جميع الجوارح .

٣ — القتيل : وإنما صار الشهيد فى مكان آخر « القتيل[١] » : لأن روحه شاهد عند الله محل الرزق . فهو مرزوق عنده من الجنة : ولأنه شهد ذلك المجمع الذى عرض فيه على الله ، وذلك أنه روى أن الله - تبارك اسمه - لما خلق الموت ، استعظمت الملائكة شأنه ، فأخبرت الملائكة أنه سيكون لله عباد يتجرعون مرارة هذا الموت ، ويسابقون إلى تجرعه ، ويتمنونه من الشوق إليه ، ويهون عليهم تجرعه فى جنب لقائه ، فأحبت الملائكة أن ينظروا إلى هؤلاء الصنف من عباده ، فعرضت تلك الأرواح عليهم ، فمن شهد ذلك العرض سمى شهيدا ، أى شهد العرض ، وذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٢] .

فالأولياء يتمنون الموت لحب لقاء الله ، وللشوق إليه ، فإنما يتبين ذلك منهم بأنهم بذلوا أنفسهم لله حتى قتلوا ، فلم يبذلوا نفوسهم للقتل إلا للشوق إليه ، ولو ساعة من نهار فى وقت المحاربة ، فمنهم من يظهر هذا

---

(١) كقوله تعالى : (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) من الآية : ٦٩ من سورة النساء .

(٢) من الآية ٩ من سورة الجمعة .

الشوق عليه أيام حياته كلها لعظيم ما انشرح به من معرفة الله ، ولما تراءى لقلبه وانفتح له فى الغيب ، وامتلأ قلبه من حب الله ، فهذا ولى الله ، مشتاق إلى الله ، باذل نفسه للموت قبل مجيئه ، ومنهم من لا يظهر عليه إلا عند الحرب ، فيظهر الحمية لله ، ويبذل نفسه من أجله للحرب ، وييأس من الحياة ، وتهون عليه المنية ، فحارب حتى قتل ، فتبين بهذا القتل أنه كان روح هذا ممن عرض هناك يومئذ وشهد المعرض .

٤ ـــ الحضور : وإنما صار الشهيد « الحضور »[١] فى مكان آخر : لأنه شهد المكان بروحه ونفسه وجميع جوارحه .

٥٦ ـ الحرج

وأما قوله « الحرج » على كذا وجه : فالحرج الضيق .

١ ـــ المأثم : وإنما صار الحرج فى مكان آخر « المأثم »[٢] : لأن المأثم مكان ضيق الله عليه أن يسلكه .

٢ ـــ الشك : وإنما صار الحرج فى مكان آخر « الشك »[٣] : لأن

---

(١) كقوله تعالى : (أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) من الآية ١٩ من سورة الزخرف .

(٢) كقوله تعالى : (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) من الآية ٩١ من سورة التوبة .

(٣) كقوله تعالى : (كتاب أنزلناه إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه) من الآية ٢ من سورة الأعراف .

الشك يضيق الصدر ، وإنما سمى شكا : لأنه يشكه ، أى يقبض صدره ، يقال فى اللغة « شك الثوب على نفسه » : إذا التف به ، وخله بخلال فقد شكه .

٥٧ — الردى

وأما قوله « الردى » على كذا وجه : فالردى السقوط ، ومنه سميت المتردية إذا تردت من جبل .

١ — الهلاك : فإنما قيل فى هذا المكان :

﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾[١] .

أى يهلكوهم ، فإذا هلك فقد سقط وتردى .

٢ — الإغواء : وإنما صار فى مكان آخر :

﴿ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴾[٢] .

أى : لتغوين ؛ لأنه إذا غوى فقد تردى وسقط ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾[٣] .

---

(١) من الآية : ١٣٧ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٥٦ من سورة الصافات .

(٣) من الآية ١٢١ من سورة طه .

أي : سقط ، ثم قال جل شأنه :

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾[١] .

أي رفعه فرجع عليه بالعطف والرحمة والرأفة ، ومده إلى نفسه . وقوله « غوى وخوى » قريب أحدهما من الآخر ، فغوى : أي سقط بقلبه عن ربه ، وخوى : أي سقط بنفسه وبدنه ، وهو قوله تعالى :

﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾[٢] .

أي ساقطة ، فقلب المهدى قائم بين يدى ربه ، منتصب بذلك الهدى ، لأنه وجد قوة نور الهدى فانتصب ، وقلب العاصى ساقط ، لأنه ما دام نور الهدى مع العبد يشرق فى صدره : لم يقدر القلب أن يعصى ، ولم يلتفت إلى هوى النفس ، فإذا جاء القضاء بالمقدور : غاب ذلك النور فى وجه القلب ، فافتقد إشراقه فى الصدر ، وجاء الهوى بالشهوة فمدت النفس ، ومدت النفس القلب : فسقط .

٣ — الضلال: وإنما سمى «ضال»[٣]: لأنه ضل ذلك النور ـ نور الهدى ـ فى وجه القلب ، فذهب الإشراق عن الصدر ، فصار ظلاما كله .

٤ — الغواية : وإنما سمى « غاوى » : لأنه سقط القلب عن الانتصاب بين يدى الله ، ومال إلى النفس والشهوة فأكب عليها ساقطاً .

---

(١) من الآية ١٢٢ من سورة طه .

(٢) من الآية ٣٤ من سورة الحج .

(٣) كقوله تعالى : (فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) من الآية : ١٧٥ من سورة الاعراف .

٥ — الموت : وإنما صار التردى « الموت »[١] فى مكان آخر : لأنه إذا مات سقط عن الانتصاب قائماً ، فيرجع ذلك كله إلى السقوط ، ولذلك سمى « الردىء » رديئاً ، يقال هذا شىء ردىء ، أى ساقط قدره، وساقط نفعه .

٥٨ — شيعا

وأما قوله « شيعا » على كذا وجه : فالشيعة واحدة ، وجماعتها : « شيعا » ، فالشيعة : كل فرقة شايع بعضهم بعضا ، أى شاع قول كل واحد منهم فى قول صاحبه ، فصاروا مختلطين قولا وفعلا ، فهم شيعة بالاختلاط ، ولذلك يقال للشىء بين شركاء « شائع غير مقسوم» ، ويقال « شاع هذا الأمر فى الناس » لتفرقه واختلاط الخبر بأسماعهم وقلوبهم .

١ — الفرق : فإنما صار الشيع فى هذا المكان « الفرق » لهذا .

٢ — أهل الدين : وإنما صار « أشياعكم »[٢] فى مكان آخر « أهل دينكم » فهذا شبيه ذلك .

٥٩ — متاع

وأما قوله « متاع » على كذا وجه : فالمتاع هو كل شىء تناولت من الدنيا تريد به الرفعة فهو متاع ، يقال : متع النهار أى ارتفع ؛ وكل

---

(١) كقوله تعالى : (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) من الآية : ١١ من سورة الليل .

(٢) من الآية : ٥١ من سورة القمر .

شيء لم يرد بتناوله رفعة وعلوا فهو زاد ، لأنك مسافر ، دعيت إلى الآخرة ، تقطع سفر الحياة لتسير إلى الآخرة . وأنت محتاج إلى الزاد لقطع هذه السفرة ، فكل شيء تأخذه لعدة السفر لقوام الدين فذاك : زاد ، وكل شيء تأخذه نهمة وشهوة فذاك لأجل رفعة النفس وعلوها فذاك : متاع .

ولذلك قال الحسن البصري[1] : « المؤمن يتزود ، والكافر يتمتع » ويقول الله تعالى في تنزيله .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾[2] .

أي نهمة وشهوة ، ليست لهم فيه نية التزود ، فجميع ما خلق في الأرض إنما خلق للآدميين لرفعة نفوسهم وتربيتها ، وقد قال تعالى في تنزيله :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾[3] .

فالكافر بقي مع التمتع ، والمؤمن صير بالنية هذا التمتع : تزودا ،

---

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار ، التابعي البصري ، ولد في خلافة عمر بن الخطاب ، توفي سنة ١١٠ هـ .

(٢) من الآية : ١٢ من سورة محمد عليه السلام .

(٣) من الآية : ٢٩ من سورة البقرة .

فصار ذلك التزود له حسنات يثاب عليه , وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ . . . » .

فإنما افترقت الألفاظ فى تفسير المتاع للأحوال .

١ — المنفعة : ثم قل فى مكان منفعة(١) .

٢ — المال : وفى مكان آخر : صار المتاع « المال » .

فهذا كله راجع إلى ما حصلناه .

٦٠ — الضحى

وأما قوله « الضحى » على كذا وجه ; فالضحى من تضحية الشمس إذا ارتفعت فبرزت بضوئها للعالم ، فقد أضحت ، فإنما يقال « ضحى » لبروزها بالضياء لأهل الأرض ، ويقال « أضحيت الشمس » أى برزت لتضىء فى وقت ارتفاعها ، وإنما سميت الأضحية « أضحية » القربان لبروز العبد إلى ربه مسلما نفسه إليه عند الذبيحة ، ثم قابلا من تلك الذبيحة فدية لنفسه ، كما فدى ولد خليله : وراثة منه لهذه الأمة ، لكرامة محمد — صلى الله عليه وسلم — ثم يتقرب إليه بذلك الدم الذى يسفحه . فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) كقوله تعالى : (وإذا سألتموهن متاعا) من الآية : ٥٣ من سورة الأحزاب .

« يُغفَرُ لَهُ مَعَ أَوَّلِ نَفحَةٍ مِنْ دَمِهِ » .

لأن الذبيح[١] سلم نفسه إلى الله ، وسلم الأب[٢] ولده للذبح ، وشهد الله لهما بالتسليم فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾[٣] .

ثم قبل من ربه الفداء ، وهو الكبش ، فلما ذبحه نجا من الذبح وتم له التسليم هناك .

فإنما يغفر له عند أول نفحة لأن الذبح فى ذلك الوقت — وقت الحز — والنفحة ، فوقت التسليم وقت البرور إلى الله ، وإبرار الفداء الذى ورثته عن خليل الله ، وعن سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ويتقرب إلى الله بالفداء فى وقت حز السكين و نفحة الدم ، لأنك خرجت عن أدناس الذنوب فى ذلك الوقت .

٦١ — الخاسرون

وأما قوله « الخاسرون » على كذا وجه : فالخسران النقصان ، فإذا نقص قيل : قد خسر ، وقد قال تعالى :

---

(١) وهو إسماعيل عليه السلام .

(٢) وهو إبراهيم الخليل عليه السلام .

(٣) الآية : ١٠٣ من سورة الصافات .

﴿ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾[(١)] .

أى لا تنقصوا ، فإنما صار تأويله فى هذا المكان هكذا : لهذا .

١ — الجهل : وأما قوله :

﴿ إنَّا إذاً لَخَاسِرُونَ ﴾[(٢)] .

قال أبو عبد الله : أى « جاهلون » ، لأن هذا نقصان العلم .

٢ — العقوبة : وإنما صار فى مكان آخر « العقوبة » : لأنه نقصان الثواب فى الآخرة .

٣ — الضيق : وإنما صار فى مكان آخر « الضيق » : لأنه تاجر الله فنقص فى الربح ، لما دخل فى تجارته بضائع لا تنفق ، وهى المعاصى والجور عن الحق .

٦٢ — الاستطاعة

وأما قوله « الاستطاعة » على كذا وجه : فالاستطاعة مشتقة من الطاعة ، يقال : أطاع وأعطى ، فأعطى أى أعطى الشىء ، وأطاع أى أعطى نفسه ، وهو أن يبذلها لربه ، فالعبد أعطى ربه قلبه ؛ ثم أعطى فى وقت الفعل نفسه ، فتلك طاعة ، فالاستطاعة : على قالب

---

(١) من الآية : ٩ من سورة الرحمن .

(٢) من الآية ١٤ من سورة يوسف عليه السلام .

« الاستفعال » كقوله « استعطى » و « استطاع » ، ومن ها هنا جاء قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾(١) .

أى تستطع فأدغمت التاء ، أى لم تعط عليه صبرا ، ومن ها هنا قالوا فى تأويل قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاء ﴾(٢) .

فنفروا من هذه القراءة « بالياء » ، حتى قالت السيدة عائشة — رضى الله عنها — « كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا : (هل يستطيع ربك) بالياء ، وإنما قالوا : (هل تستطيع ربك) بالتاء » ، أى هل تستطيعه ما نسألك .

١ — وجود الزاد والراحلة : وإنما صار قوله تعالى :

﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾(٣) .

(قال المفسرون) : من وجد الزاد والراحلة ، فصير الاستطاعة : وجود الزاد والراحلة ، لأنه قد أعطى فاستطاع ، وفى مكان آخر يقول تعالى :

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة الكهف .

(٢) من الآية: ١١٢ من سورة المائدة .

(٣) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

﴿ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾[(١)] .

قال أبو عبد الله « أى لو وجدنا .. » فهذا مثل الأول .

٢ — القدرة : وإنما صار فى مكان آخر فى قوله تعالى .

﴿ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا . . . ﴾[(٢)] .

أى : إن قدرت ، فهذا راجع إلى ما قلنا ، لأنه إن أعطى القدرة قدر .

٦٣ — فتولى عنهم

وأما قوله « فتولى عنهم » على كذا وجه : فالتولى هو أن يوليه دبره وظهره ويتوجه إلى ناحية أخرى ، وإنما صار فى هذا المكان قوله تعالى:

﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾[(٣)] .

فإذا توجه بوجهه ناحية قيل ؛ قد ولى وجهه نحو كذا ، وتولى عن ذلك الوجه إلى ناحية كذا ، وكله مثل قوله «رغب فيه» ، « ورغب عنه» فالرغبة فيه إقبال عليه ، والرغبة عنه إعراض عنه وإقبال على ضده ، فهذا مثل ذلك : ولاه وجهه من أجل أنه يليه ، ولى عنه وجهه أى :

---

(١) من الآية : ٢٤ من سورة التوبة .

(٢) من الآية ٣٥ من سورة الأنعام .

(٣) من الآية ١٥٠ من سورة البقرة .

أعرض عنه وولى وجهه ضده ، فـ « ولى » على وزن « فعل » ، و « تولى » على وزن « تفعل » ، فقد اختلف القالب والمعنى واحد .

٦٤ ـ الروح

وأما قوله « الروح » على كذا وجه : فالروح بدو الخلق ، وهو ريح الرأفة ، قبض الله منها قبضة ، فخلق المكان وهو الهوى ، وخلق فى المكان العرش واللوح والقلم والنور والظلمة والماء والنار ، ثم افترق الروح فى الأشياء :

١ — فى النبوة . ٢ — والقرآن [١] . ٣ — والوحى [٢] .

٦٥ ـ الأحزاب

وأما قوله « الأحزاب » على كذا وجه : فالحزب واحد والأحزاب جماعة ، فكل شىء تفرق صار فرقا فرقا ، وكل فرقة منها حزب ، والأحزاب الذين تحزبوا فى الأديان [٣] ، فكأن الدين واحد ، وهو الإخلاص فكل فرقة دانت بدين فأشرك هذا فعبد الوثن ، وعبدت فرقة الشمس ، وعبدت فرقة النار ، وعبدت فرقة المسيح ، وفرقة عبدت عزيرا ، وفرقة عبدت اللات والعزى ، (وهما صنمان) .

---

(١) كقوله تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره) من الآية ٢ من سورة النحل

(٢) كقوله تعالى : (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) من الآية ١٥ من سورة غافر .

(٣) كقوله تعالى : (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) من الآية ٥٣ من سورة المؤمنون.

٦٦ ــ التقوى

وأما قوله « التقوى » على كذا وجه : فالتقوى مأخوذ من الوقاية ، وإنما هى : وقى يقى وقاية ، وإنما الاسم منه وقوى ، فحولت الواو تاء ، كقوله : ورث يرث وراثا ، ثم صيرت الواو تاء ، فقيل : تراث وهو قوله تعالى :

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا ﴾[١] .

وإنما صار قوله « اتقوا » أى افعلوا الوقاية ، وكان حقه أن يكون « أوتقوا » ، فأدغمت الواو فى التاء ، فصارت تاء مشددة .

١ ــ الطاعة : فإنما صارت التقوى فى هذا المكان « الطاعة » من قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾[٢] .

أى أطيعونى ، لأنه إذا أطاع فقد اتقى مانهى عنه .

٢ ــ الخشية : وإنما صارت التقوى « الخشية »[٣] فى مكان آخر : لأنه إذا خشى اتقى المحارم ؛ والتقوى أن تجعل ذلك الشىء النفيس فى

---

(١) الآية ١٩ من سورة الفجر .

(٢) من الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(٣) كقوله تعالى : (فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) من الآية ٩ من سورة النساء .

حراستك فتحرسه من الآفات، وأنفس شيء أعطاك الله وأشرفه وأعظم قدرا معرفته، فتقواك أن تجعل حراستك وقاية لذلك النور، فكل شيء نهى الله عنه تجتنبه، فأخذك الحذر من الآفات التى تصل إلى القلب من طريق نقصان الدين فتحرس قلبك الذى هو خزانة الله حتى لا يصل إلى ذلك النور غبار ولا دنس ولا رائحة منكرة ولا مرارة فى النفس. فالدنس يحدث من المعاصى، والغبار من العيوب وهى الأخلاق السيئة، والرائحة المنكرة من الكبر والخيلاء، والمرارة من الغضب والرغبة فى الدنيا، فهذا تقواك فى الباطن حتى تسلم معرفتك: حلوة نزهة. كما روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال:

« الإِيمَانُ حُلْوٌ نَزِهٌ فَنَزِّهُوهُ ».

٦٧ — « الصف »

وأما قوله: « الصف » على كذا وجه: فالصف كل جماعة استوت فى وقوفها أو سيرها أو قعودها فى مجالسها، لا يتقدم واحد منهم صاحبه وكل شيء سوى الناس من النبات والأشجار، ومن الدواب، ومن فرش البيت: فهو صف، وذلك قوله تعالى:

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾[1].

---

(١) من الآية: ٢٠ من سورة الطور.

أى وضعت تلك السرر مستوية ، لا يتقدم ولا يتأخر واحد منها
وقال فى مكان آخر :

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾(١) .

وقال تعالى :

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾(٢) .

وقال أيضاً :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾(٣) .

فكلما استوت الأشياء على أمكنتها بجماعتها : فهى صف ، فإنما يراد من ذلك استواء الأشياء ، فإنما صار قوله تعالى :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾(٤) .

يقول : جميعا أى جماعة كل صنف صفا ، وقال فى آية أخرى :

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾(٥) .

---

(١) من الآية : ١٥ من سورة الغاشية .

(٢) من الآية : ٧٥ من سورة الزمر

(٣) من الآية ١٦٥ من سورة الصافات .

(٤) من الآية ٤٨ من سورة الكهف

(٥) من الآية : ٢٢ من سورة الفجر

وقال جل شأنه :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾[١] .

فكل صنف إذا استوى مستقرهم فهو صف . فالرسل صف ، والأنبياء صف ، والأولياء صف ، والزهاد صف ، والعلماء صف ، والحكماء صف ، والعباد صف ، والمتقون صف ، وسائر الموحدين جملة : صف .

٦٨ — الحشر

وأما قوله « الحشر » على كذا وجه : فالحشر الإجلاء والبعث إلى مكان آخر .

١ — الإجلاء : فإنما صار الحشر « الإجلاء » لأنه إجلاء اليهود من منازلهم من المدينة إلى الشام[٢] .

٢ — البعث : وإنما صار الحشر « البعث[٣] » فى مكان آخر : لأنه أجلاهم من قبورهم إلى محل العرض والحساب .

---

(١) من الآية : ٣٨ من سورة النبأ .

(٢) وهو قوله تعالى : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب لأول الحشر ....) من الآية : ٢ من سورة الحشر .

(٣) كقوله تعالى : (فوربك لنحشرنهم والشياطين) من الآية : ٦٨ من سورة مريم .

٦٩ـ الرجاء

وأما قوله « الرجاء » على كذا وجه : فالرجاء هو تنحى القلب وانزعاجه من مكانه ، كالمـاد عنقه إلى شىء طمعا ، فإذا ترائى لعين الفؤاد فى الصدر أمر يوافقه ويشتهيه حن إليه القلب ، ونحا نحوه ، فذلك تنحى القلب عن مستقره نازعا إلى شىء يطمع فيه ، وكذلك إذا خاف وقع الجبن فى الرئة فوت ما طمع فيه ، وخلوص شر ومكروه إليه فانتفخت الرئة ، وذلك يسمى الجبن ، فإذا انتفخت الرئة فأزاحت القلب عن مستقره فذاك الخوف ، مشتق اسمه من الخفوف ، وهو الارتحال والنهوض ، وسلطان النفس فى الرئة ، ومنها تتنفس ، فإذا وقع الجبن ، وهو سوء الظن فى الأمور : انتفخت الرئة ، نخف القلب عن مكانه ، وإذا وقعت الشهوة فيها نحت القلب عن مكانه نازعة إليها ، فلذلك جاز أن يسمى الرجاء خوفا ، والخوف رجاء فى مواضع ، لأن الصفة فى الباطن واحدة ، أو قريبة من الأخرى .

١ ـ الخوف : فإنما صار قوله تعالى :

﴿ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾[1] .

أى لايخافون ، وقوله تعالى :

﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾[2] .

---

(١) من الآية : ٧ من سورة يونس عليه السلام .

(٢) الآية : ١٣ من سورة نوح عليه السلام .

أى لا تخافون لله عظمة ، وأما قوله تعالى فى مكان آخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾(١).

فهذا رجاء النوال . وأما قوله فى مكان آخر .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾(٢).

فهذا رجاء طمع ، وفى مكان آخر :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾(٣).

أى لا يخافون .

٧٠ — الوحى

وأما قوله « الوحى » على كذا وجه : فالوحى هو سرعة المجىء يقال توح أى أسرع ، ويقال هذا أمر وحى أى سريع ، ثم فى هذا المجىء السريع أشياء تتضمنه منها : ما ضمنه كلامه ، ومنها : ماضمنه النبوة ، ومنها : ماضمنه علمه ، ومنها : ما ضمنه علم تدبيره وهو الحكمة .

---

(١) من الآية : ٢١٨ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ٢٨ من سورة الإسراء .
(٣) الآية : ٢٧ من سورة النبأ .

فالوحى الذى ضمنه كلامه هو « الرسالة » ، والوحى الذى ضمنه النبوة هو « النبوة » ، والوحى الذى ضمنه علمه هو « الحديث » ، والوحى الذى ضمنه الحكمة هو « الإلهام » ، فهذا كله وحى سماوى .

قال له قائل : ذكرت أن الوحى هو سرعة المجىء ، وإنما سمى وحيا لسرعته فما هذا الذى يجىء بهذه السرعة ؟ ، قال (أبو عبد الله) : أخزنه إلا عن من هو أهله ، وإياك أن تلفظ عند من لا يستحقه فيزدريه وطلبت الحكمة العليا التى هى حكمة الحكمة لأنك وضعتها عند غير أهلها ، ومن ظلم الحكمة العليا خفت بأن يمسخ قلبه ، لأنه لعب بها حين وضعها عند غير أهلها ، والجاهل يردها فيكفر ، وإنما يردها لأنه لا يحتمل عقله ذلك ، وجليل العلوم إنما تحتمله العقول التى وفرت لأهلها قسمتها ، فمن كان ناقص العقل حملته هذه الأشياء فردها حتى كفر ، كان بمنزلة من وضع كسرة خبز فى فم رضيع حتى أخذت بحلقه فقتلته وإنى أحتسب عليك بهذه الكلمة رجاء المغفرة ، وأن يكون ذلك عندك أمانة محفوظة تؤديها إلى خلف صدق ، لئلا يدرس العلم ، فذلك الشىء الذى ذكرت أنه إنما سمى وحيا لسرعة مجيئه هو الحياة ، والرأفة حشو تلك الحياة ، والرأفة كلام الله ، وغلبة الحياة وقوة الرأفة قد اكتنفتاه ، فالكلام كأنه بين لوحين : بين غلبة الحياة ، وكثافة الرأفة فإذا نزل فى صدر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قوى القلب بتلك الحياة على احتمال كلام الله ، وقويت النفس ، واستمرت لكثافة الرأفة ، فلا يفتر ولا يضعف ، حتى يلج الكلام رويدا رويدا فى القلب

ويتمكن ، فقد كان يعرق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى اليوم الشاتى لثقل كلام الله ، هذا كله إلى سرعة المجىء ، لغلبة الحياة وقوتها ، فقيل وحى .

وإنما صار الوحى الأرضى إشارة ، فهو ما أوحى زكريا أى أشار إليهم أن يسبحوه بكرة وعشيا [١] ، فأى شىء أسرع من الإشارة ، وقوله تعالى :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ [٢] .

قال أبو عبد الله : أذن لها ، فهو أيضا للسرعة ، وما أوحت الشياطين بعضها إلى بعض ، أى ألقت إليه الوسوسة ، وما قال الله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ [٣] .

فهذا قذف إلهام ، وقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ [٤] .

---

(١) وهو قوله تعالى : (فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة وعشيا) من الآية ١١ من سورة مريم .

(٢) الآية : ٥ من سورة الزلزلة .

(٣) من الآية : ٧ من سورة القصص .

(٤) من الآية : ١١١ من سورة المائدة .

وأيضا قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾[1] .

فهذا كله قذف الإلهام ، فهذا القذف فى سرعة طرفة العين ، فمرجع ذلك كله إلى السرعة .

٧١ — الجبار

وأما قوله « الجبار » على كذا وجه : فالجبار الذى يجبر الأشياء قهرا ويحملهم على مشيئته أحبوا أو كرهوا ، والجبر هو أن يجبر الشىء المكسور ، فإنما قيل جبر لأنه حمل العظم على العظم حتى اتصل ، وإنما قيل أجبره أى : حمله على ذلك الشىء كرها حتى فعل وجبر ، وهو متعدى ولازم ، وأجبر هو متعدى فقط ، وقيل فى بعض الرجز :

قد جبر الدين الإله فجبر .

أى أن الإله جبر الدين فجبر الدين بنفسه من فعل الله به .

١ — القتال على الغضب : وإنما صار الجبار « القتال على الغضب » الذى يضرب على الغضب ، لأنه حمله ذلك على القتل والضرب .

---

(١) من الآية : ٦٨ من سورة النحل .

٢ — المسلط : وإنما صار فى مكان آخر « المسلط[١] » : لأنه يسلط حتى يقهر ويحملك على المكروه .

٣ — قوم عاد : وإنما صار فى مكان آخر « قوم عاد[٢] » فى طول قامتهم لأنهم كانوا يقهرون الخلق بما أعطوا من عظم الخلق ، فمرجع ذلك كله إلى القهر .

٧٢ - السوى

وأما قوله « السوى » على كذا وجه : فالسوى مأخوذ من السواء نخلق الله آدم فسوى خلقه ، والتسوية أنه كان طينة مجموعة فسواها جثة ، فابتدأ من عجب الذنب[٣] ، فوضعه شيئاً فشيئاً من تلك الطينة إلى أم الرأس ، ثم خلق أسافله إلى العقب وأطراف الأصابع .

٧٣ — اللغو

وأما قوله « اللغو » : فاللغو كل ما ألغاه أى رمى به من غير روية

---

(١) كقوله تعالى :(نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار) من الآية : ٤٥ من سورة ق .

(٢) وذلك قوله تعالى : (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) من الآية ١٣٠ من سورة الشعراء .

(٣) العجب : أصل الذنب ، ومؤخر كل شىء ، ومن الإنسان : يوجد فى نهاية العمود الفقرى من أسفل الجسم .

ولا تدبير ، فهو فى العاقبة يبطل ، فكل كلام لغط وجزاف فهو لغو .

١ — اليمين : فإنما صار اللغو فى مكان « اليمين » الذى يرى أنها كذلك لأنه رمى بها جزافا من غير روية .

٢ — الزور والباطل : وإنما صار اللغو فى مكان آخر « الزور والباطل[١] » ، لأنه باطل لايدوم .

٣ — اللغط : وإنما صار فى مكان آخر اللغو « اللغط » ، لأن اللغط جزاف .

٧٤ — ظل

وأما قوله « ظل » : فظل يقال بالنهار ، وبات بالليل ، يقال ظل يصنع كذا ، فهذا يقع على ما كان منه بالنهار ، ويقال بات يصلى ، وبات يصنع كذا فهذا يقع على ما كان منه بالليل ، فقوله « ظل » مشتق من الظل لأنه أينما تحرك وقع بحركاته ظل هذا الغالب فى أمر النهار ، ولا يكون بالليل ظل ، وقوله « بات » أى حل ، مأخوذ من الباه ، ثم صير الهاء تاء ، وإنما سميت الباه لحلول الرجل على البضع ، فالليل سكن والنهار نشور ، وقد قال تعالى فى تنزيله :

---

(١) كقوله تعالى : (والذين هم عن اللغو معرضون) من الآية : ٣ من سورة المؤمنون .

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾[١] .

فنى السكن تحل النفس وتستقرو فى النهار تنتشر ، فلذلك يقال : بات : أى حل بنفسه فى مستقره حلولا ، كما يحل المسافر بوطنه ، فالنهار كالسفر لتقلبه وانتشاره ، والليل حلول بالوطن راجعا من سفره إلى الوطن .

٧٥ ـ الأسباب

وأما قوله « الأسباب » : فكل حبل سبب ، وكل طريق سبب ، لأن الحبل يؤديك إلى المنتهى ، وكذلك الطريق ، وكذلك كل شىء يتعلق به حتى يؤديك إلى شىء : فهو سبب ، فقد اتخذلك طريقا إلى ما قصدت .

٧٦ ـ الحق

وأما قوله « الحق » فالحق هو نور الاستقرار ، فهو لاحق كل عمل والمؤمن مقتضاه أن يعظم الحق فى كل عمله ، ويخلصه التعظيم للحق ، والإخلاص للعدل .

---

(١) من الآية : ٤٧ من سورة الفرقان .

١ ـــ الله : وإنما صار الحق فى هذا المكان « الله[١] » : لما ذكرنا

٢ ـــ القرآن : وإنما صار الحق فى مكان آخر « القرآن[٢] » .

٣ ـــ الإسلام : وصار الحق فى مكان آخر « الإسلام[٣] » .

٤ ـــ الرسالة : وصار الحق فى مكان آخر « الرسالة » .

٥ ـــ محمد صلى الله عليه وسلم : وفى مكان آخر محمد صلى الله عليه وسلم[٤] فقد ذكرنا بديا أن الحق قد تمكن فى كل شىء من أمر الله الذى تعبد به العباد ، والذى خلق خلقه كله بالحق ، والذى أحيا كل شىء بنور الحياة ، والذى قسم قسم بنور العدل ، والذى فضل على القسمة بعد القسمة ، فضل بنور الفضل .

---

(١) كقوله تعالى : (فذلكم الله ربكم الحق) من الآية : ٣٢ من سورة يونس عليه السلام .

(٢) كقوله تعالى : (والذى أنزل إليك من ربك الحق) من الآية الأولى ، من سورة الرعد .

(٣) كقوله تعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) من الآية : ٣٣ من سورة التوبة .

(٤) مثل قوله تعالى : (وشهدوا أن الرسول حق) من الآية : ٨٦ من سورة آل عمران .

٧٧ — بغير حساب

وأما قوله « بغير حساب » : فالحساب هو الحبس للتفتيش عما جاء به حين وافى عرصة القيامة .

١ — بغير هندام : وإنما صار قوله « بغير حساب» أى بغير هندام[١] لأنه لم يقدر له .

٢ — بغير تبعة : وصار فى مكان آخر بغير حساب أى بغير حساب أى بغير تبعة[٢] .

٣ — البيان : وفى مكان آخر الحساب « البيان » فكذلك يكون الحاسب ليبين ويعرف ما عمل وهو قوله تعالى :

﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾[٣] .

وإنما صار الحساب تبعة لأنه يتبع ما جاء به .

٤ — العمل : وإنما صار فى مكان آخر حسابه « عمله » لأنه على العمل يحاسب ويقتضاه الوفاء .

---

(١) فى الأصل : بغير هندان .

(٢) كقوله تعالى : (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) من الآية ٣٩ من سورة ص .

(٣) من الآيتين : ٦ ، ٧ من سورة الزلزلة .

٧٨ — المـاء

وأما قوله « المـاء » على كذا وجه : فالمـاء فيه حياة ، فصار مرة مطرا ، ومرة عيونا ، ومرة أنهارا ؛ فهذا كله ماء ، والمـاء الذى منه الولد وجه آخر[١] .

١ — العلم : وفى مكان آخر صار المـاء « العلم » .

٢ — اليقين : وفى مكان آخر صار المـاء « اليقين » .

فهذا كله من أجل الحياة ، ففى المـاء حياة ، وفى النطفة حياة إذا خلق ، وفى العلم حياة ، وفى اليقين أوفر الحياة .

٧٩ — كبير

وأما قوله « كبير » : فالـكبير مأخوذ من الـكبر ، على قالب «فعيل» وإنما صار فى هذا المـكان الـكبير « العظيم » : لأنه داخل أحد الإسمين فى مكان آخر ، لأن صفاته العظمة والـكبر ، فالعظمة فى الامتلاء ، والـكبر فى العلو والارتفاع ذاهبا .

١ — النار : فانما صار فى مكان آخر الـكبر « النار » لعظم النار وتـكبرها إذا حميت ، فاستعلى تلظيها .

---

(١) كقوله تعالى : (خلق من ماء دافق) الآية : ٦ من سورة الطارق .

٨٠ — يوزعون

وأما قوله « يوزعون » فالوازع الكاف الذى يكف ويحبس الجيش إذا ساروا حتى يلحق آخرهم أولهم .

١ — الإلهام : وصار فى مكان آخر الإيزاع « الإلهام » وهو قوله تعالى :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾[1] .

أى ألهمنى ، والإلهام : قذف ينبه قلبك ، ويوقظ نفسك ، لأن النفس نائمة مستثقلة نوما من الشهوات الباطنة ، وإذا جاءت الشهوات الظاهرة التى لم يطاق له فيها فاستعملها : ماتت ، فالإلهام نور فورة المحبة ، يقذفه الله فى قلب العبد فى آخر ذكر النعمة حتى يذكر ولى النعمة ويريها من عنده حتى يلحق هذا الذكر بأوله ، فيحبس أوله على آخره حتى يشتمل هذا الذكر وهذه الرؤية على أوله وآخره ، فيكون شكراً : تلك الرؤية ، وذلك الذكر .

٨١ — السبيل

وأما قوله « السبيل » على كذا وجه : فالسبيل الطريق ، وجماعته سبل .

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة النمل .

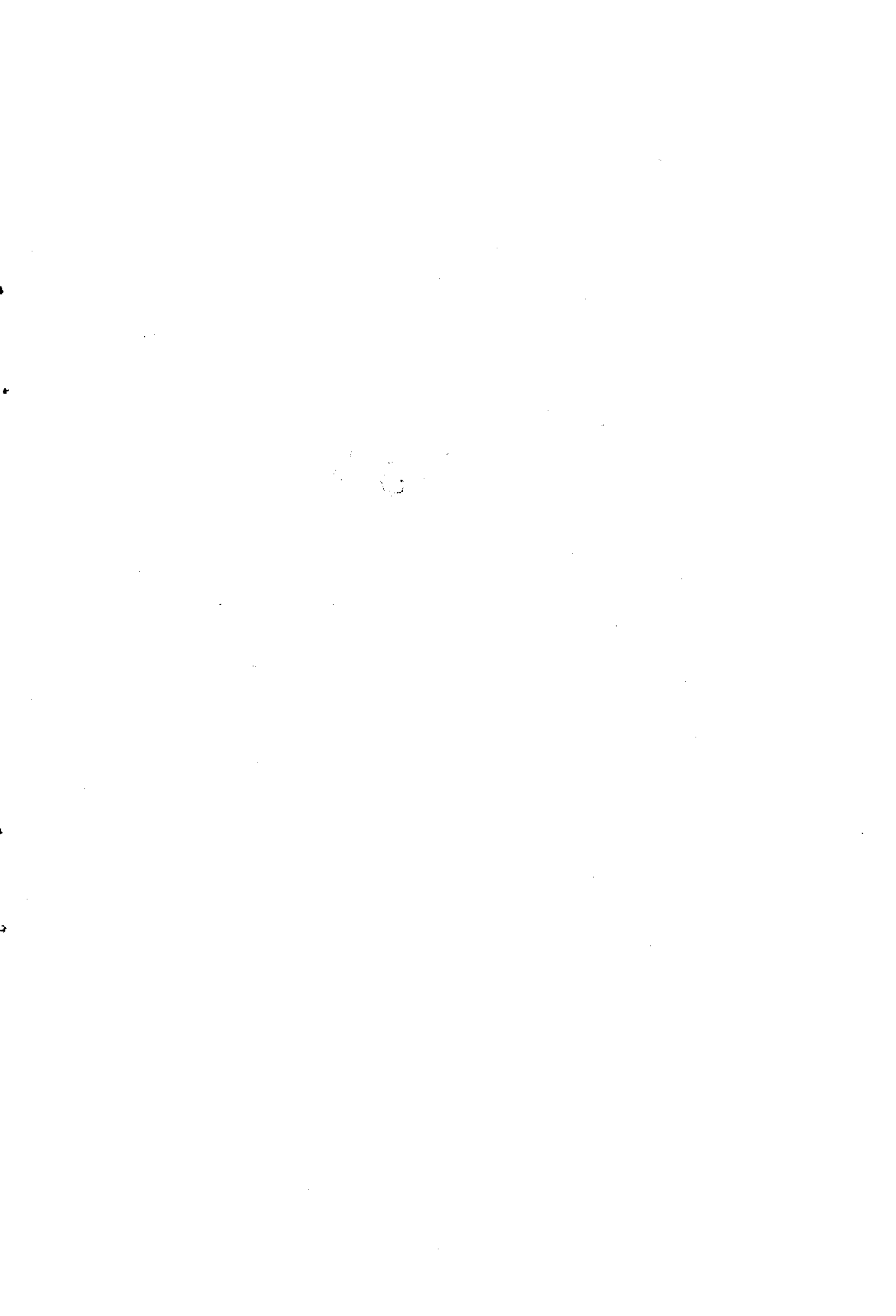
١ — الدين : فإنما صار السبيل فى هذا المكان « الدين » : لأنه طريق العباد إلى الله .

٢ — السلطان والملك : وإنما صار السبيل « السلطان والملك » : لأن الملك يتخذ للأمور طريقا .

وإنما سمى السبيل سبيلا ، لأنه يرخى زمام نفسه لقطع مسافة ، فإسباله له إرخاؤه الزمام ، ومنه إسبال الإزار وإلقاؤه بالأرض ، ومنه إسبال الدموع ، أى إهمالها حتى تجرى .

انتهى بحمد الله ومنه ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما دائما .

ملحق الفهارس



١ - فهرس بموضوعات

كتاب « تحصيل نظائر القرآن »

الموضوع			الصفحة
١٠ — الخزى :			٤٣ — ٤٥
ونظائره :			
١ ـ العذاب	٢ ـ الهلكة	٣ ـ الهوان	
٤ ـ الذل	٥ ـ الفضيحة		
	١١ — باءوا		٤٥ — ٤٦
ونظائره :			
١ ـ النزول	٢ ـ التوطن		
	١٢ — الرحمة		٤٦ — ٤٨
ونظائره :			
١ ـ النبوة	٢ ـ الإسلام ـ	٣ ـ الرزق	
٤ ـ النصر	٥ ـ الفتح	٦ ـ المودة	
٧ ـ العافية	٨ ـ المطر	٩ ـ القرآن	
١٠ ـ الجنة			
	١٣ — الفرقان		٤٨ — ٥٠
ونظائره :			
١ ـ النور	٢ ـ الخروج من الشبهة	٣ ـ النصر	
	١٤ — قانتون		٥٠
ونظائره :			
١ ـ المقابلة	٢ ـ الطاعة		
	١٥ — الذكر		٥١ — ٦٧
ونظائره :			
١ ـ الصلاة	٢ ـ الخوف	٣ ـ الخبر	

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



٢ — فهرس الأعلام

الواردة فى كتاب « تحصيل نظائر القرآن »

(ع)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(ى)

٣ — فهرس بأهم مراجع التحقيق

١ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . لأبى السعود محمد بن العمادى . مطبعة صبيح .

٢ — أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى .
مطبعة الحلبى ١٣٥٨ ﻫ .

٣ — تذكرة الحفاظ : للذهبي . أربعة أجزاء . طبع حيدر آباد ١٣٣٤ ﻫ .

٤ — تفسير الجلالين : السيوطى والمحلى . مطبعة الحلبى ١٣٥٨ ﻫ .

٥ — تفسير النسفى : لعبدالله بن أحمد بن محمود النسفى . مطبعة الحلبى

٦ — تهذيب الأسماء واللغات : للنووى . أربعة أجزاء . إدارة الطباعة المنيرية .

٧ — تهذيب التهذيب . لابن حجر العسقلانى ، اثنا عشر جزءا حيدر آباد ١٣٢٥ ﻫ .

٨ — خلاصة تذهيب تهذيب فى أسماء الرجال . للخزرجى .
المطبعة المنيرية ١٣٢٢ ﻫ .

٩ — دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة العربية .

١٠ — القاموس المحيط : للفيروز آبادى ، أربعة أجزاء . مطبعة الحلبى ١٩٥٣ م .

١١ — القرآن الكريم .

١٢ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
وضع محمد فؤاد عبد الباقى .

١٣ — الموسوعة العربية الميسرة . الطبعة الأولى ١٩٦٥ م .

تصويب

الخطأ	الصواب	ص	س
وغور أسبارها	وسبر أغوارها	١١	١٧
سقط السطر الثالث وهو :		١٣	٣
٥ — الصلاة ومقاصدها . طبع المؤتمر الإسلامى بالقاهرة ١٩٦٥ .			
النحل	النمل	٢٣	١٧
وإنما الهدى	وإنما صار الهدى	٢٤	١
كادار	كار	٦٢	١٤
قوله وتعالى	قوله تعالى	٩٢	١٣
العدئان	العدوان	٩٧	٧
أن يتسوما	أن يتسموا	٩٨	١٢
عند	عنه	١١٠	٩
انفحتت	انفتحت	١٢٦	٥



رقم الإيداع ١٩٧٥ / ١٩٧٠